امرأة من ورق

قصص

مؤيد عبد الستار

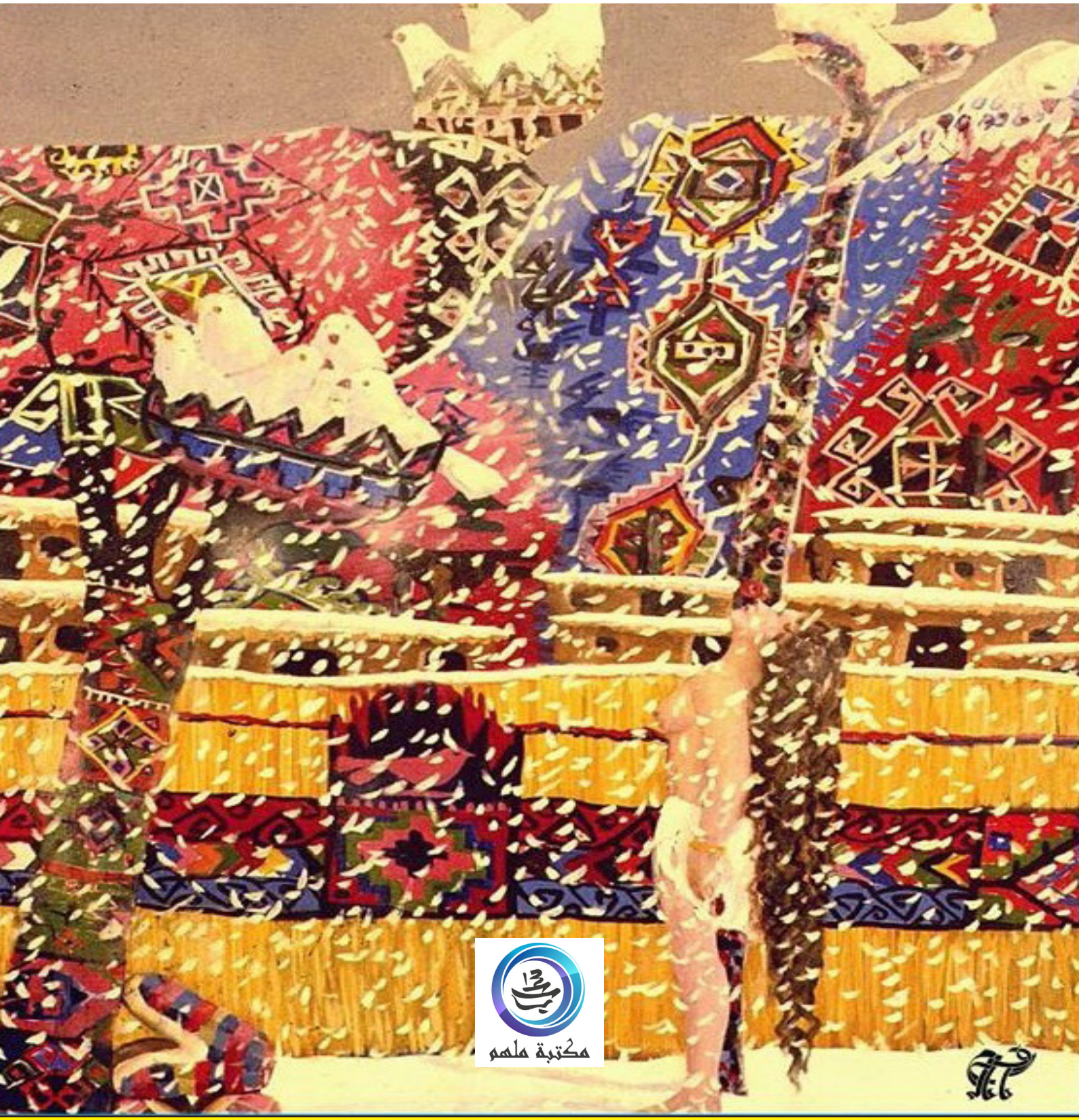

مكتبة ملهم

امرأة من ورق

قصص قصيرة

مؤيد عبد الستار

حقوق النشر محفوظة للمؤلف
ISBN 1 90492302 X

امرأة من ورق

ضحى كل يوم، دون اهتمام كبير بالطقس، يبدأ السير في طريقه المعتاد ليقطع الشارع العريض وينتقل إلى الجهة الأخرى. يسير بمحاذاة شاطئ القناة المتفرعة من البحر كي يتجه نحو الميناء... كم يجدها ممتعة، تلك الساعات التي يقضيها متجولاً بين المقاهي والحانات المنتشرة على جهتي الشارع الذي يغص بالناس من مختلف الألوان. مجموعات من الشباب والفتيات تحتسي البيرة وتغني، فتاة جالسة لوحدها ترمق الماء بعينيها المتلألئة، شيوخ وعجائز يستمتعون بأيامهم التي توشك على الهرب، بعضهم يسير متكئاً على عصاه، والبعض الآخر يتكئ على عربة يد صغيرة تساعده على أن يمشي الهوينى... بواخر صغيرة أنيقة تخطف البصر بين الحين والآخر، تحمل سياحاً إلى تمثال حورية البحر التي أصبحت شعاراً للمدينة.

حزنت كثيرا لأن هذا التمثال الجميل لم يسلم من الاعتداء. فقد قام معتوه بقطع رأس الحورية وسرقته، وحين يأسوا من العثور عليه، نصبوا لها رأساً جديداً. ترى هل يحمل الرأس الجديد نفس المزايا ؟ لابد أن يكون للرأس القديم شيء من النكهة يختلف فيها عن الجديد، فالأشياء لا يمكن أن تتكرر، لا كما خلقها الله ولا كما صنعها الفنان.

لم أكن أعتقد أن مثل هذه الأشياء تحدث هنا أيضا، في هذه البلدان المتقدمة. كان من المعقول جدا أن تحصل عندنا.

وحق له أن يتساءل بحزن: هل يستطيع أحد أن يبرر قطع رأس هذه الحورية الجميلة؟ مجسم برونزي رقيق نصفه الأعلى امرأة ونصفه الأسفل سمكة، مخلوق لم نشاهده إلا في السينما والصور والإعلانات، تمثال لامرأة ناهد، ترقب البحر كما يرقب أبو الهول صحراء مصر الشاسعة.

حين أعربت عن أفكاري للفتاة الفارسية الهيفاء التي كانت تجلس قرب التمثال، وحاولت كالعادة، الافتخار بما لدينا من تماثيل نحتها أجدادنا، قالت ببساطة لم أعهدها لدى فتاة في مثل سنها: إن الفرق بين الماضي والحاضر يتضح هنا، في هذا التمثال.

سألتها مراوغا: كيف تستطيعين التمييز بين الماضي والحاضر من خلال هذه التماثيل؟ لا شك أن الماضي الذي يتمثل بأبي الهول له جلاله، وأنكِ لم تشاهديه عن قرب وهو يرقب الصحراء المترامية كالديدبان الذي يحرس البلاد.

هل تعرفين ما يعني الهول في لغتك الأعجمية يا حفيدة عمر الخيام؟

قالت مبتسمة: نعم أعرف. الرعب.

-نعم، هو ذاك. قلت بعبوس حين رأيتها تعرف ما أردت إقحامها به، وأضفت باستنكار : الرعب هو الذي لم نفهمه بعد. نحن لا نعيش هنا سوى الخوف والرعب، الخوف من المستقبل والرعب من الحياة. خامرني خاطر وسوس في صدري هامساً: فتاة فارسية صعبة المراس، فلأذهب معها إلى آخر الشوط، محاولاً الاستمتاع بحديثها وموسيقى لغتها الفارسية، فأشرت إليها أن تلحظ كيفية جلوس الحورية على الصخرة، هذه الحورية تجلس كما تجلس فتاة شرقية على بساط وثير. اعتاد الأوربيون الجلوس على الأرائك والكراسي، بينما اختار الفنان الأوربي أن تجلس فتاته جلسة شرقية كي تكون أكثر إغراء وأشد جاذبية.

ابتسمت وهمست، صحيح جدا ما تقول، هذا ما أردت أن أوضحه لك منذ البداية ولكنك لم تفسح لي في المجال، ما أردت أن تلحظه هو الفرق بين الماضي والحاضر، فلو كان الفنان الأوربي محكوماً بنظرتنا لما اختار غير الواقع الذي يعيش ضمنه، ولكنه استطاع أن يتجاوز واقعه ويستعير من شرقنا هذه الهيئة في الجلوس لأنها أكثر رشاقة، وهي تليق بحورية ساحرة.

- هل تقصدين أن الفتاة الشرقية حورية ساحرة؟ قلت بحذر.

-لا، لا تذهب بعيدا، أردت أن أقول إن الفرق بين الماضي والحاضر يتضح في الأسلوب أيضاً، لا في الأفكار والصور فقط. ألم تذكر أبا الهول، أرأيت كيف نصبه المصريون حارساً لهم في وجه الصحراء، وكيف أطلقوا عليه هذا الاسم الذي يوحي بالهول والرعب، بينما نصب الدانماركيون حورية حسناء للبحر. إنها ليست مسالة فكرية فحسب، وإنما هي تعبير عن العلاقة بالآخر، مهما كان هذا الآخر: بحر، صحراء، حجر، إنسان... إن العلاقة بينكم وبين الآخر علاقة خوف ورعب وأهوال، بينما العلاقة بينهم وبين الآخر علاقة حب وود. أنظر إلى عينيها، حورية بحق، أنظر وسترى كيف تحدق في البحر وتبث الدفء والحنان في الأوصال.

نظرت إلى التمثال فتسمر نظري على رشاقة التفاصيل وعلى التعبير البليغ المشع من وجه الحورية، ولكنني انتبهت لنفسي وقلت للفتاة الفارسية: ألا تعتقدين أنك مغرمة بهؤلاء الشقر أكثر مما يستحقون، إن تاريخهم ملئ بالعنف والقسوة. هل قرأت شيئا عن تاريخ الفايكنغ؟ هم أجداد هذه الشعوب الاسكندنافية. نظرت الي بمرح وقالت بغنج يميز بنات العجم: التاريخ شئ مضى، لا يمكنك الحكم على الناس من خلال أجدادهم. ما أدراك كيف عاش جدي أو جدك؟ لربما بسببهم نحن الآن غرباء نجوب هذه البلدان.

فكر بإمعان مع نفسه وتساءل بصمت: لم اختار الفنان للحورية هذا الشكل، النصف الأعلى امرأة والنصف الأسفل سمكة؟ وهل يا ترى هناك حوري يقابل هذه الحورية؟

رجل حوري! لم يسمع بشيء من هذا القبيل، لربما يستحيل وجود رجل حوري، فالرجال كلهم أبطال، صناع حروب، لا مكان في عالم الرجال لحوري. ولو افترضنا جدلاً أن فنانا أراد أن يتخيل رجلا حورياً، فكيف سيكون؟ هل سيكون نصفه الأعلى رجل والنصف الأسفل سمكة؟ وماذا سيصنع بالذنب؟ هل سيجعله متدلياً إلى الأمام أم إلى الخلف؟ لابد أن التمثال سيكون مثيراً للسخرية! وربما لهذه الأسباب جعل الهنود وجه الإله كرشنا جميلا، لا تستطيع التفريق بينه وبين وجه امرأة. أجدادنا الآشوريون وجدوا حلاً للمشكلة، تخيلوا الرجل الحورى، نصفه الأعلى رجل، ونصفه الأسفل ثور، يالها من مفارقة، حتى ملائكتنا يصورون على شاكلة ثيران! لابد أن النحات الآشوري لم يقصد نحت حوري أو ملاك، و إنما كان منشغلاً في خلق حارس يحميه من أعدائه. كم كان كثير المعارك والمشاحنات! إنه بحاجة إلى إله قوى يحميه، لا إلى حوري يؤنسه أو حورية تغنيه. الخوف كان يحكم قبضته على قلب الفنان الآشوري فخلق الحوري الثور، أراده وسيلة تحميه من الآخر، لا وسيلة تقربه منه.

لم ينتبه كيف اقترب من الفتاة الفارسية أحد معارفها فتعانقا بشوق، عناق المحبين، فذهب دون مجادلتها، واضطر لأن يودعها:

ـ خدا نكهدار ... فتخيلها ترد عليه

ـ خدا حافظ!

* * *

سرت بشيء من التعب، ورغبت في التسكع بين الذين احتلوا مقاعدهم قرب البحر وفي المقاهي القريبة، فوصلت حانة الصيادين الشهيرة، والتي مازال بعض روادها القدامى يرتادونها ويحتسون البيرة فيها. تناولت كأساً من النبيذ وجلست قرب البار. تركت لعيني حرية التجوال بين الجدران المثبتة عليها بعض اللوحات وأدوات الصيد. صعدت عيناي إلى السقف المزدان بشباك الصيد البيضاء. تفحصت النادلة الجميلة التي كانت تبتسم برقة لأحد رواد الحانة بينما تناوله قدحا من النبيذ الأحمر. رأيت أمامها سكان باخرة ينتصب على البار، فأخذتني صناعته الصقيلة ولونه البني إلى مجاهل البحار، حيث يجذف صياد همنغواى ـ الشيخ ـ ليتبع سمكة عملاقة، يلاحقها حتى يقهرها، ولكنه، ويا للأسف، يعود بها إلى الساحل عظاما عارية، ومع ذلك كانت دليلاً لا يضاهى على عظم صيده وقوة إرادته، مهما كانت خسارته كبيرة.

* * *

مرة أخرى يجد نفسه على أرصفة الميناء.

التقت عيناه بمنارة رشيقة مزينة بالفسيفساء، لم يصدق نظره، كان يتوقع رؤية طيور النورس تحلق فوق السفن، تطير وتحط فوق مياه البحر لتلتقط سمكة أو طعاما ما، كان يحسب أن سيقابله فنار تختلج أعلاه شعلة ضوء هادية للسفن البعيدة، أو يرى مدخنة سفينة عملاقة عادت من سفر بعيد تتهادى بركاب أتعبهم السفر، أشياء كثيرة اعتاد أن يراها كلما سار على أرصفة ميناء من الموانئ الكثيرة التي مر بها في رحلة عمره القصيرة والطويلة في آن واحد، كان مندهشاً وهو يرى إلى هذه المنارة الغريبة تنتصب أمامه، أمر لم يخطر له على بال، والأغرب من ذلك إنها لم تكن منارة اعتيادية، إنها منارة ملوية، مشيدة على غرار منارة سامراء.

* * *

انتقلت روحه إلى تلك المدينة التي تعبق تربتها برائحة الإمام والزوار، وتشدو في سمائها الأدعية والتراتيل، فغابت في بهاء الجلال الصوفي، ولم تعد تذكر الخليفة الذي شيدها، أرادها عاصمة له بدلاً عن بغداد.

ترى هل هي مصادفة أخرى من المصادفات العديدة التي مرت به؟

أم إنه يتخيل أشياء لا وجود لها!

لقد استغرب الأمر حد الرعب، أرعبته الفكرة التي لمعت كالبرق في ذهنه فطردها بقوة، ولكنها ظلت تدور أمام عينيه وتتقافز في صدره كالأرنب، أغمض عينيه لينسى، فتذكر ما قالته قارئة الفأل العرافة، يوم رمت بأحجارها الملونة وخرزها ومحاراتها فوق منديل مطرز بخيوط الإبريسم، فرشته فوق التراب، أمام السور العتيق لمسجد الملوية الذي جلست تحت ظلاله.

هل كان ذلك قبل عشرين عاما؟! لقد نسي السنين ولم يعد يعرف تواريخ الأحداث، إنها تبدو له وكأنها حدثت قبل قرن من الزمان لا قبل سنوات معدودة. لم يعد يذكركم عدد السنوات التي مرت عليه مذ غادر مدينته وتاه في مدن لا تحصى. لقد توقفت الأرقام وثبتت، فلم تعد تثير اهتمامه أو فضوله، لم تعد تعني شيئا له، كل ما يعنيه إن الحدث وقع والسلام. ثم ما معنى أن تعرف تاريخ كارثة ما قتلت روحك واقتلعتك من جذورك؟ إنها لسخرية فجة أن يحرص على تسجيل ما عاشه من آلام، وانه ليعجب كيف يسجل الناس ويحفظون كل الأحداث المؤلمة التي تمر بهم. لا بل انهم يتناقلونها جيلاً بعد جيل وكأنهم يجدون فيها متعة لا توصف!

رمت العرافة، قارئة الحظ والبخت، أحجارها ثلاث مرات، وكانت في كل مرة ترمي بها الأحجار، تعود فتجمعها من جديد بيديها المزينتين بالوشم الأزرق، ثم تنظر إليه، رافعة بصرها إلى وجهه وإلى السماء وتقول بصوت خفيض: لا حول ولا قوة إلا بالله.

في المرة الأخيرة حدقت في الأحجار والخرز باندهاش، فتحت عينيها المحددتين بالكحل الأسود الممتد إلى نهايتي حاجبيها الطويلين، واتكأت على جدار السور، فبدت مثل حكيم جاء من زمن ورقة بن نوفل.

الان، يتذكر بوضوح شديد كيف همهمت لتخبره عن أمره، ما يعلم منه وما يجهل. تذكر كوز الماء الفخاري الذي وضعته قربها، والذي شكل مع ظلالها اهليلا يشبه قوس فارس عاد لتوه من مجاهل الصحراء.

ما الذي جعله يتذكر تلك المرأة وهو يسير في عاصمة الدنمرك بعد كل تلك السنوات التي قضاها يرتحل بين بلدان الشرق والغرب. لقد أصبحت كوبنهاكن خاتمة المدن التي عليه أن يهجع بها هجعته الأخيرة، رغم انه يردد دائما بأنها لن تكون مسك الختام، فهو مازال يحلم بمدينته التي هناك.

هنا في هذا الميناء النائي، وأمام هذه المنارة الأنيقة، تقفز إلى ذهنه كلمات تلك العرافة، العجوز البدوية، يوم جلس أمامها، طوى قلبه على سره الكبير؛ سر سفره إلى خارج البلاد. كتم الأمر عن أقرب الناس إليه خشية افتضاح أمر هربه ومعرفة رجال الشرطة السرية بالأمر. لقد طوقته الأسرار في بلده كما تطوق الشرنقة خيوطها.

-قالت له العرافة ببساطة مدهشة: أمامك سفر طويل، ولكنك مهما شرقت وغربت، ستختتم حياتك قرب منارة ملوية.

ابتسم يومها. فقد فرح، لأنه حسب ان أمر عودته مؤكد، فها هي العرافة التي اكتشفت سره الدفين تخبره موقنة بأنه سيختتم حياته قرب المنارة الملوية. ولكنه الآن عرف معنى كلماتها، وتذكر إنها لم تقل قرب منارة سامراء الملوية. يالله، أيكون لترتيب الكلمات كل هذا الفرق، ولبعض الحروف كل هذا الهول. هل يعني ذلك، إن هذا المكان هو آخر المطاف، وانه سيلقى نهايته في هذا البلد البعيد؟

-لا، لا تشغل نفسك بهذه الترهات – همس لنفسه مواسياً – فأنت لم تبلغ من العمر ما يؤهلك للخروج من هذه الدنيا ودخول نعيم الأبدية. إن الوقت مازال مبكراً لمثل هذه السفرة النهائية، فأنت لم تتأهل لها بعد. حتى أنك لم تتزوج ولا مرة واحدة، مع إن دينك يسمح لك بالزواج من أربع نساء. يجب أن تكون هناك فسحة ما، إن الأمر لا يعدو أن

يكون أكثر من رجم بالغيب. إضافة لذلك، ألا يكذب المنجمون ولو صدقوا. لا.. لا.. دع القلق، وعش يومك.

و الأنكى من كل ذلك، لا أطفال في حياتك.. لمن ستحكي وتقص حكاياتك التي عشتها في كل تلك البلدان التي رأيتها. لم ير جدك جلجامش سوى غابات الأرز في لبنان، ورغم ذلك عثر على عشبة الخلود، بينما تصطدم أنت وبعد كل هذا الارتحال بمنارة ملوية، تجد أنها تنقلك إلى العالم الآخر. كل ذلك بسبب عرافة بدوية لا تعرف إلا وضع نهايات من صنع صحرائها القاتلة.

لم يكن حزنا ذاك الذي ارتسم على صفحة وجهه المشوبة بسمرة خفيفة، ولكنه تساءل: لمن سيروى كل تلك الحكايات التي مازال يحفظها، والتي رواها له جده طوال سنوات حياته الأخيرة، يوم كان يفلح معه الأرض الطيبة؟ حكايات كأنها جرت أمام عينيه يوم أمس.

حاول استعادة كلمات أغنية قديمة كي يتناسى العرافة المشؤومة وأقوالها، ولكن السؤال الكبير ظل يرتسم أمامه، ويتراقص فوق مياه الميناء التي اختلطت زرقتها بألوان الزيوت البنفسجية التي تقذفها البواخر والسفن الراسية.

كان السؤال أكبر من أن يستطيع الإفلات منه. هل ستحل نهايته هنا، في هذا البلد الغريب وفي هذه البقعة النائية عن المعارف والأصدقاء؟!

هرب إلى فكرة الزواج وضرورة البحث عن فتاة لإكمال دينه، كما اعتاد جده على القول حين كان ينصحه أيام الشباب. قد يكون الزواج منقذا ولربما علاجا لهذه الغربة، ولكنه بالتأكيد علاج مؤقت. ومع ذلك أين يجد الفتاة التي يريد. وهل يتزوج إحدى هؤلاء الفتيات الأوربيات اللواتي لا يعرفن معنى الزواج أو الطلاق؟ إنهن يتجولن في الطرقات وأفخاذهن العارية تتراقص أمام الناس دون قطرة من حياء. أكفالهن تترجرج كمؤخرة الظباء الطليقة في صحراء نجد. رحم الله عمر بن أبى ربيعة. أين هو من هذه الأجساد البضة والوجوه المتبرجة؟ ماذا تراه كان سيقول لو جاء اليوم يزور هذه البلاد؟ أظنه كان سيلقي بديوانه بين أفخاذهن لا محالة، وينهل من عبير المراعي الاسكندنافية، وينسى حتى قول الشعر والعروض، ولربما سيبدأ كتابة قصيدة النثر!؟

يا لفظاعة هذه الأفكار المهزومة.

ولكن كيف سيستطيع السير إلى جانب إحدى هؤلاء العاريات لو تزوج من إحداهن، وماذا سيقول عنه أبناء عشيرته لو شاهدوه مع امرأة شبه عارية متبرجة، لا تخجل من

الكشف عن جمال مفاتنها، وبهاء سيقانها البلورية الشبيهة بالعاج والمرمر. من الأفضل له أن يدفن نفسه في رمال الشاطئ من أن يراه أحد في مثل هذا الموقف.

لماذا لا يجرب البحث عن واحدة تقنع أن تصبح مسلمة، وتلتزم بعاداته وطريقة حياته! إن الأمر ليس بهذه السهولة. ثم أين هي هذه الأوروبية التي تقبل أن تخضع لشروط حياة مثل حياته، شروط كلها قهر وحرمان وتسلط! حياة كلها التزامات لا نفع فيها، ولا تعد قياسا لشرف أو أخلاق في هذه المجتمعات.

لم يفطن إلى نفسه حين انحرف عن طريقه المعتاد وأخذ يسير في أحد الشوارع المؤدية إلى محطة القطار.

لقد عبر من أمام المسرح الكبير ودخل شارع المشاة، فوصل مدينة الألعاب (تيفولي). هناك انشغل بالتطلع إلى الصور والإعلانات الملونة لأجساد عارضات الأزياء النافرة من المايوهات المثيرة التي تنتشر في الساحات وتقاطع الشوارع الكبيرة.

كان غالباً ما يندهش حين يجد نفسه فجأة أمام محطة قطار أو ميناء بواخر. ويسأل نفسه؛ لماذا تتجه أقدامه دون إرادة منه نحو هذه الأماكن؟ قال له أحد عباقرة مدينته، من الذين يعرفون كل ما كانت تفعله عجائز المحلة حين استفهم منه عن هذه الحالة، بعد أن شرب شاياً وسحب نفسا عميقا من سيجارته: إن ذلك له علاقة وثيقة بالمكان الذي ألقت فيه الأم حبل سرته حين كان وليدا. فان هي ألقته في بستان، فان هواه يكون في التجوال بين البساتين حين يكبر، وعلى هذا الأساس، يكون الاحتمال الوحيد هو ان أمه ألقت بحبل سرته في كراج للسيارات، فلم يكن في مدينته لا ميناء ولا محطة قطار.. وحين تذكر أمه وما جاء به إلى هذه البلاد همهم يعنف نفسه: إلى أين تبغي الوصول بعد ان قطعت كل هذه الدروب؟ أليس هذا الميناء هو آخر الموانئ التي أمامك؟ هل ينتظرك مرفأ آخر بعد هذا تريد بلوغه؟

كانت الأفكار تأخذه وتدور به في شوارع المدينة حتى وصل إلى الشارع المحاذي لمحطة القطار.

تطلع إلى مطعم ماكدونالدز المنتصب وسط الشارع بمهابة أمريكية ساخرة، فلمح بعض الآسيويين يحتلون واجهة المطعم الزجاجية وهم يلتهمون الهامبرغر بسرور. هم بالدخول، لكنه فضل مواصلة السير متجها نحو الركن البعيد عند التقاطع المقبل، ليصل إلى كشك يعرفه يبيع الفلافل.

ما كاد يقترب من التقاطع حتى عبقت رائحة الفلافل وملأت خياشيمه، ابتسم وردد قائلا: حتى هنا لحقت بنا الفلافل. أسفا، لم تلحق بنا شهرزاد ولا فيروز، لا أعلم أي ابن

حلال تطوع في نقل هذه الأشياء وراءنا... ربما نحن الذين لا نستطيع التخلي عنها، إنها ملتصقة بنا، لا مهرب لنا منها، ترى هل أرسلها أحد حكامنا الميامين خلفنا كي تذكرنا به؟

استمر مواصلا السير حتى دخل شارعا بدا له انه يطرقه لأول مرة، لم يره سابقاً رغم أنّه يعرف جميع الشوارع التي تحيط بالمحطة.

شاهد محلات غريبة هنا. واجهة أحد المحلات تعرض صور فتيات عاريات كبيرة الحجم. ليس غريبا ان تشاهد مثل هذه الصور في هذه البلاد، ولكن بهذا الشكل الصريح والمكشوف! ذاك ما لم يعهده لدى المحلات العامة. اقترب متجولا بين المحلات، أثار فضوله ما شاهده من عرض فاضح لأعضاء بلاستيكية متنوعة بدت وكأنها أعضاء جنسية بشرية حقيقية لولا أحجامها المبالغ فيها.

وقف أمام واجهة المعرض باستحياء وتطلع إلى المعروضات. قرأ إعلانا على صندوق مربع رسمت عليه صورة فتاة مزوقة تتوهج بنداءات جنسية صارخة. أثارته كلمات الإعلان التي تشير إلى ان هذه الدمية تفي بجميع ما يريد، تستطيع تلبية رغباتك وإطفاء شهواتك، ثم رأى على الرف مجموعة أخرى من الدمى تمثل مختلف الأجناس البشرية، إضافة إلى ان بعضهن يستطعن إطلاق الأصوات من تأوه وتنهد. تعجب حين قرأ ان منهن من تعمل بالبطارية، لتكون دافئة كامرأة حقيقية.

نظر إلى السعر المثبت على الدمية، فوجده سعرا معقولا، بل ليس بكثير على فتاة بهذه الصفات. تلفت حوله وتحسس الأوراق النقدية المستقرة في قعر جيبه والتي كان يحرص على إنفاقها باقتصاد. سار خطوات مبتعداً عن المعرض فوجد معرضا آخر يعرض مثل تلك المنتجات، وزيادة على ذلك يقوم بعرض أفلام مثيرة في صالة ملحقة بالمعرض.

طافت بذهنه فتاة الأحلام.. يالله، هل وصل الأمر بهذا العالم المجنون أن يصنع نساء من دمى!!

هذا إعلان يقول ان هذه الدمية لا تختلف عن المرأة الحقيقية، إنها تتكلم، دافئة وتعمل بالبطارية. هل يختار إحدى هذه الدمى وينتهي من مشكلة الزواج؟

وإذا اشترى واحدة، فهل يختارها شقراء أم سمراء؟ إن لديهم أشكالا وألوانا عديدة معروضة في مختلف الواجهات في هذا الشارع، منها دمى اعتيادية ومنها دمى سوبر. قد تكون على شاكلة سوبرمان، من يعلم....

ولكن، هل كتب عليه أن يقضي حياته مع دمية؟ وكيف بالأطفال، هل سيشترى أطفال استنساخ أم أطفال أنابيب؟ يالها من مشكلة...

حسنا ليشترى الآن دمية ويعدها زواجا مؤقتاً، زواج متعة، أما زال التمتع جائزاً؟ سيسأل بذلك إحدى القنوات الفضائية العربية. جميل جداً، لابد ان أحد الشيوخ سيجد لذلك تأويلاً، وإلا لماذا هذه القنوات الفضائية إذا لم تكن مثل هذه المشكلة من صميم مهامها. على الدوام نحتاج فقيها من العصور الماضية ليحل لنا مشاكلنا المعاصرة، ماذا كنا سنعمل لو عزف هؤلاء الشيوخ عن دراسة كتب الفقه القديمة أو أضربت المطابع الأمريكية عن طباعتها في المستقبل؟!

الآن لا داع لكل هذه السفسطة وليحسم الموضوع.

خطا خطوات قليلة مبتعدا عن المعرض، ثم تباطأ قليلا قليلاً، تحسس نقوده ثانية وعاد من جديد إلى المعرض الأول وهو يصفر صفيرا خافتاً...

سيشترى واحدة وليكن ما يكون، سيختار واحدة شقراء، جميلة، تذكره بمارلين مونرو، ألا يحق له ـ بعد هذا العمر ـ أن ينام يوماً مع واحدة مثل مار لين مونرو؟ إن لدى المعرض واحدة بهذا الشكل وتحمل نفس الاسم.

لا بأس، لتكن من ورق أو بلاستك، إن هذا لا يعني شيئا، مادامت مصنوعة على شاكلة أجمل فتاة أمريكية.

ولكن، ماذا سيقول للبائع؟ وكيف سيطلب منه ما يريد، هل سيكلمه بلغة الإشارات؟ ثم إذا اشتراها، هل يعقد عليها القران عند البائع أم يأخذها إلى القاضي أو الشيخ؟ وأين سيجد هم في هذا البلد الكافر. اللعنة، لم يتصور أن يتعقد الأمر إلى هذا الحد، فهي ليست اكثر من دمية من ورق و لا حاجة لكل هذه الأفكار السوداء. يكفي أن تدفع بعض الأوراق المالية وينتهي كل شيء.

ادفع وستتأبط حالاً امرأة شقراء في علبة زاهية، تأخذها معك حيث تريد، ولولا الرقابة تستطيع أخذها إلى بلدك وتتخلص من المهر والغائب والحاضر والشيخ والقاضي وما إلى ذلك من مصائب.

لماذا لم يخلق الله النساء في بلداننا مثل هذه الدمى كي يستطيع كل من يريد الحصول عليهن بهذه السهولة؟ الآن بلا جدال، ماذا ستقول للبائع؟ يجب عليك أن تتحدث بلغته أو بلغة أخرى يفهمها.

حاول، جرب أن تقول أريد امرأة!

لا، لا تستطيع أن تقول امرأة، إنها دمية من ورق، إذن حاول أن تقول ذلك..

ولكن إذا سألك ماذا ستفعل بها، كيف ستجيب ؟

قد تكون لعبة أطفال وأنت تتصورها امرأة، كما كنت تتصور الكثير من هذه الأشياء أيام زمان عندما كنت مراهقا في مدينتك الحبلى بالحرمان.

يجب عليك أن تخبره بما تريد...

اللعنة على هذه اللغة الدنماركية، كم هي صعبة...

لا تستطيع بواسطتها اختيار امرأة... حتى امرأة من ورق!!

حاول من جديد... امرأة من و ... و ... و .. !

***

البحيرة البيضاء

قبل حلول عيد رأس السنة الجديدة بأسبوع واحد، ألغيت مشروع سفري إلي مدينة اوبسالا، وقررت قضاء العيد مع كلبي الأبقع بوري. فالشعور بالوحدة الذي لازمني في هذه المدينة التي أعيش فيها منذ ثلاث سنوات يدفعني إلى اقتناص أيام العطل لأسافر إلى أحد الأصدقاء كي نقضي العطلة معا، ولا شك أن هذا الكلب الصغير الذي ورثته من جارتي العجوز كان سببا في إلغاء سفري، ولكنه والحق يقال ليس بالسبب الوحيد. فالكلب بيري الذي أبدلت اسمه فيما بعد إلى بوري كان ملك جارتي التي طلبت مني العناية به قبل أن ترحل إلى عالمها الأبدي، ولربما كانت تظن إنها ستشفى من دائها العضال وتستعيد كلبها المدلل مني، ولكن العناية الإلهية خيبت آمالها فورثت كلبها. ومنذ اليوم الذي دخل فيه هذا الكلب حياتي، أصابني هوس التبذير، وكان تبديد المبلغ الذي ادخرت للسفر سببا إضافيا لإلغاء رحلتي. ومع هذا يجب ألا أخفي حقيقة سأمي من السفر الذي أخذ ينتابني في الآونة الأخيرة. حتى منظر الحقيبة أخذ يستفزني. فمنذ سنوات وأنا أتنقل حاملا حقيبتي على كتفي حتى مللت شكلها. لست نادماً على ذلك. فقد خفتت عواطفي التي كانت تحفزني على لقاء المعارف الذين سبق وأن جئت معهم إلى السويد، ثم توزعنا في مدن متباعدة مختلفة. كنا نحرص على اللقاء كلما سنحت الفرصة فنجتمع عند أحدنا. نجتر الذكريات، ونناقش كل ما يخطر على البال، بدءًا من أحوالنا حتى أخبار المستر جورج بوش. أما إذا لعبت الخندريس بالرؤوس فعندك الحساب. وفي آخر مرة التقينا فيها، كادت الأمور تنتهي نهاية غير حميدة بسبب خلاف نشب بيننا حول الحصار أدى إلى شجار بالأيدي بين بعضنا.

سأقضي عطلة رأس السنة هنا في اوميو، فلا ضير أن أكتشفها أيام الأعياد مع كلبي بوري. ورغم شعوري بالألفة في هذه المدينة الباردة إلا إن شقتي التي تطل نوافذها على البحيرة الثلجية تجعلني دائم التذكر لشواطئنا الدافئة التي ضاعت من بين أيدينا. هذه البحيرة القاسية مثل قالب ثلج، تتجمد عواطفي حين أنظر إليها. حاولت مرة أن أخفف من شدة انفعالي، وقلت لنفسي: لأتصورها بجعة جميلة، فهذه البحيرة المتجمدة طوال أشهر الشتاء أستطيع تخيلها بجعة بيضاء. أغمضت عيني وبدأت أردد: بجعة... بجعة...بيضاء... بجعة... ثم فتحت عيني فوجدتها مازالت تلك البحيرة عينها، فأقلعت عن مثل هذه المحاولات السخيفة. وشعرت بالقشعريرة تسري في أوصالي حين رميت ببصري محاولا استشراف نهاياتها فلم أر سوى الثلوج البيضاء التي ترتسم في الأفق الضبابي. أزيز حاد شق فضاء البحيرة، مجموعة من الشباب تقترب على دراجات نارية تزمجر مسرعة، دراجات تجرى على زلاقات بدل الدواليب المطاطية، بقيت أراقبها حتى استدارت ونزلوا عنها، أخرجوا معدات صيد السمك، سحب أحدهم آلة

حديد من على دراجته، ذراع لولبي مسنن، ثبت نهايته على الجليد وبدأ يدير المقبض بيده حتى حفر سطح البحيرة الجليدي، فعل الجميع مثله بالتناوب وأدلوا بسناراتهم في مياه البحيرة وأخذوا يصطادون السمك بسرعة لم أعهدها.

اصطاد بعضهم سمكا أرقط واصطاد البعض الآخر سمكا أحمر ذكرني بالسمك الحمرى الذي كنا نصطاده على شواطئ دجلة. كنا نفرح بصيدنا كثيرا، عكس هذا الصياد الذي لا يبدو عليه الفرح. أردت أن اسأله إن كان يبيعني السمكة الحمراء التي اصطادها، إلا أنني أحجمت، خشيت أن ينظر إلي بشفقة ويقدمها لي مجانا.

عاودت السير مبتعدا، فعاد إلي مذاق السمك الذي كانت جدتي تقفصه بالشواية المضلعة وتشويه بالتنور فتعبق رائحته مثيرة شهية سابع جار. لم أشم فيما بعد، طوال ترحالي، ما يشبه رائحة السمك ذاك، حتى على شواطئ البلطيق، يوم شوى لنا موشي سمكة على طريقة (المسكوف)، كانت باهتة الطعم، وحين عاتبناه على ذلك قال: ماذا أفعل، لا يوجد هنا سمك شبوط.

كان ذلك اليوم الذي أكلنا فيه السمك على شاطئ لتوانيا يوما دافئا، البلطيق حلم الوصول إلى الضفة الأخرى؛ الشواطئ الاسكندنافية. كنا نتحلق حول السمكة التي تتوهج قرب النار، نسينا قلقنا واضطرابنا الذي يلازمنا بسبب جوازات السفر المزورة التي نحملها، وأي جوازات! أحدنا عنده جواز يوناني وهو لا يعرف كلمة يونانية واحدة. أما عبد الرحمن فكان يحمل جوازا إسرائيليا باسم موشي، فلقبناه موشي دايان. كان ذلك يغيظه حد البكاء. وما أن ركبنا باخرة الصيد المهترئة، بعد ذلك بأسبوع لنبحر باتجاه السويد، حتى فاجأنا عبد الرحمن بإلقاء جواز سفره في البحر وصاح: خلصـ ...ت.

أعادني نباح بوري إلى البحيرة فنظرت إلى حزام الأشجار التي تشمخ على جانبها الغربي لتشكل مع الثلوج لوحة أخاذة تنعكس على صفحات البحيرة فيضفي جلال شجر الصنوبر الشامخ بهاء على مشهد الغروب الذي يفاجئنا بعد الغداء مباشرة. فالوقت الذي يحد طلوع الشمس وغروبها قصير جدا قرب هذه البحيرة، أما حين تكشف الشمس الخجولة سماء البحيرة وتطرد الضباب فلا بد أن يداخلك السرور لمشهد الأطفال الذين يتسابقون بزلاجاتهم فوق سطح البحيرة.

يوم أمس حين التقيت جارى الذي يسكن في بنايتنا والذي اعتاد الخروج ليتمشى قبل الغروب، بدا فرحا بالشمس المشرقة، حياني بلطف تحيته المعتادة: هاي صن، وأضاف مبتسما: يوم مشرق، أليس كذلك؟

ضحكت وأشرت موافقا برأسي الذي بدا كبيرا بسبب قبعة (الشابكة) الروسية التي عليه والتي اشتريتها في لتوانيا.

وددت لو أحدثه عن شمسنا، عن شهر آب الذي يحرق المسمار بالباب. لا أعرف كيف أحدثه عن ذلك، هل يصدقني لو حكيت له كيف نتحمص في الصيف، في قيض تموز... سأحاول يوما... فالشتاء طويل.

***

فنجان قهوة

تناثرت حبات المطر بعنف وضربت أرنبة أنفه رغم قلة المطر المنهمر، فالرياح تصفر في سماء روزنجورد منذ ليلة أمس، إنها تجعل المطر يضرب كالسهام ذلك الجزء من الوجه المختفي خلف قبعة فرنسية زرقاء حجبت جبهة الرجل المتوجه إلى المدرسة.

حاول دس رقبته وحنكه في طيات لفاف الرقبة الذي لفه بإحكام، ولكن قطرات المطر الباردة كانت تلسعه بين آونة وأخرى.

أسرع الخطى فقفزت أمامه حمامة ابتل جناحها فاختبأت خلف صندوق القمامة الحديدي. كان عليه أن يصل إلى المدرسة التي لا تبعد عن محل سكناه سوى ثلاثة كيلومترات أو نحو ذلك، إلا أنها بدت اليوم بعيدة جدا. وشعر للحظة انه سوف لن يصلها، لقد بدا تعبا أكثر من أي وقت مضى. استطاع أن يغذ السير بفرح حين شاهد أطفال الروضة التي في طريقه يمرحون ويتأرجحون في الأراجيح وهم يرتدون ملابسهم الملونة وأغطية رؤوسهم الصوفية المزركشة. نظر إليهم بحنان طفولي وأكمل طريقه.

حين دلف إلى المدرسة فضّل الصعود إلى الطابق الرابع بالسلم بدلا من المصعد الكهربائي رغم كون السلم لا يتميز بأية ميزة مغرية، فما هو إلا سلم يلتف كالأفعى. ومع أنه نظيف جدا إلا أنه لا يحمل سوى رائحة المواد المنظفة المشبعة بالكلور... أين من هذا السلم ذاك الذي كان يفضي إلى سطح دارهم الطيني؟ كان سلماً مشيداً بالطابوق والجص الأبيض، يفوح بعطر التراب الخالد حين يرشه الجد بالماء الذي ينثره من إبريقه الفضي قبل صلاة المغرب.

وقبل أن تستغرقه رائحة البيت القديم وجد نفسه لاهثا أمام الرقم (4) الذي يشير إلى الطابق الرابع، حيث بدأ يدرس اللغة السويدية منذ بضعة أشهر.

ظن لأول وهلة أن صعوده السلم ينفعه في التغلب على آلام الظهر التي أخذت تزداد مع ازدياد البرد في فصل الشتاء، وقال له أحد معارفه إن الرطوبة العالية هي التي تسبب آلام الظهر، بينما علق آخر مشيرا إلى الثلج قائلا إنه هو سبب الآلام، آلام الظهر وآلام الروح. أين نحن من هذه البلاد الباردة. ألا لعنة الله على ذلك اليوم الذي جاء بنا إلى هذا الصقيع.

ـ شدعوه يابه، ليش ما عدنه ثلوج بالعراق؟ علق أحدهم وهو يحتسي القهوة.

حين شاهده يرشف القهوة بانتشاء، غلبته الرغبة في تناول فنجان منها أيضا، فنجان قهوة يبعث الدفء في الأوصال المقرورة ويفتح الدماغ.

ـ أي دماغ... وهل هناك دماغ بعد كل هذا القهر؟!

بحث في جيب معطفه الرمادي عن قطع النقود اللازمة، أخرج عدة كرونات، اختار منها ثلاث كرونات بيضاء وأخذ يلقمها الماكنة واحدة إثر الأخرى، وبين كل كرونة وأخرى كان أبو حليمة يحدث نفسه بحديث متقطع لا يتبينه إلا من كان على مقربة منه. سمعته يتنهد ويدمدم: إيه أيتها الماكنة، أتعلمين أية قهوة أريد؟! إن قهوتك لا تناقش، ولا تخضع لرغبة الزبون الذي يدفع النقود، إنك تفرضين القهوة التي تقدمينها إليه، هل تحسبين ما تبيعينه لنا قهوة؟ لا والله، إنها سم أسود، زقنبوت... ولكن مع ذلك سأدفع لك ما تريدين وأشربها.

حين سمع الرجل الواقف إلى جانبه شيئا من هذا الهمس، تدخل وهو يبتسم بقوله:

ـ اشرب أخي.. سقراط شرب أقوى من هذا السم قبلك بألف عام.. بقت عليك!!

لم يعره أبو حليمة أي اهتمام وكأنه لم يسمع تعليقه. ألقم الماكنة آخر قطعة نقدية، وله الآن أن يختار ما يشرب.

ضغط على زر القهوة، ثم زر السكر، وتوقف هنيهة مفكرا، هل يضغط على زر الحليب ويشربها كما كان يشرب العرق الأبيض حين يمزجه بالماء والثلج؟ لا، لست معتادا على شرب القهوة ممزوجة بالحليب، قال ببرود... وتذكر، يومها كان أبو عامر، قهوجي المصبغة، يعدها سادة، دون سكر،ممزوجة بالهيل فقط...

ـ أيباه...إن طعمها لا يزال في فمي حتى اللحظة. نعم، أيتها الماكنة الحديد، أنت لا تعرفين أبو عامر الذي كان يسقيني قهوته كل صباح، حين افترش الأريكة التي تتصدر المقهى المطلة على شاطئ دجلة، قبل أن أذهب إلى عملي.

كان أبو عامر يعرف مزاج وذوق كل رواد المقهى، ماذا يفضلون، وماذا يشربون.. كان يعرف من يشرب القهوة سادة ومن يشربها مع السكر، من يشربها مرة ثقيلة ومن يشربها رائقة، يا لطعم تلك القهوة المعطرة بالهيل.

ذات يوم، حين جئت متأخرا على غير عادتي إلى المقهى، قلت له :

ـ أبو عامر، الله يخليك، أريد قهوة خفيفة، لم أستطع تناول الفطور هذا الصباح، أشعر بحرقة في فمي، لقد حدث ما لم يكن بالحسبان ليلة أمس...

فأجاب أبو عامر بقلق مرير:

ـ أعرف، أبو حليمة، كلنا نعيش هذه الأيام أحداثا غريبة، يوم أمس طوقت شرطة الأمن محلتنا، واقتادوا بعض الأسر المعروفة في السيارات العسكرية، قالوا، سيرمون بهم على الحدود، إلى الذئاب، تصور أبو حليمة، حملوهم مع الأطفال في سيارات (الزيل) المكشوفة دون رحمة، من يستطيع الاحتجاج على الحكومة، من؟!

وأضاف بعطف: سأضع لك ملعقة سكر مع القهوة لتعوضك عن الفطور.

كان أبو عامر حريصا على العناية بالقهوة ومداراتها بهدوء حذر كي تصل إلى درجة الغليان في اللحظة المناسبة. كانت قهوته منعشة، حين تشربها، تنتعش، وتصعد إلى فضاء فسيح تحلق فيه بلا أجنحة. أما أنت أيتها الماكنة، فستبقى قهوتك ماء أسود لا غير، ولكني سأشربها.

***

مذكرات حمار الرئيس

ديباجة

حدث هرج ومرج كبير بين الناس في بلاد الأنهار والفخار أوائل العقد الأخير من القرن الماضي، كان سببه سقوط الحمم والنيران من السماء على البلاد لمدة أربعين يوما، هاج بعدها الناس وماجوا وانتشروا في المدن يعيثون في الأرض فسادا، حتى أنهم هاجموا كل بنايات الحكومة ودخلوها عنوة، وكانت بناية أسرار الدولة قد استبيحت فدخلها الغوغاء ونهبوا خزائنها وملفات أسرارها، وكان من بين ما نهبوا هذا الملف الغريب الذي يحمل عنوان: مذكرات حمار الرئيس، وفيه كل ما يتعلق بالحمار المخصص لرئيس البلاد.

-1-

ولدت ونشأت حمارا مع لداتي الحمير، نمرح ونعنفص طوال النهار. عشنا مع أسرة من البشر كانوا يقدمون لنا العلف إضافة إلى ما نحصل عليه من نباتات وحشائش منتشرة في أرجاء القرية، نشرب الماء من جدول رقراق يمر من أمام منزل صاحبنا البستاني. كان أولاد البستاني يلعبون معي ويقفزون فوق ظهري ويداعبوني حتى ان إحدى الفتيات الصغيرات كانت تقبلني من وجناتي بحرارة.

- 2 -

اعتادت أمي الأتان أن تقص لي قصة قبل أن أنام، بعض قصصها كانت جميلة مازلت أذكرها والبعض منها حزين. روت لي أمي كيف أُجبرت على نقل الأحمال كل يوم حتى أثناء حملها بي، وقالت إن هذه البردعة التي على ظهري صارت جزء مني رغم كرهي لها. كما روى لي أبى قصة استغلاله من قبل البستاني، رغم أنه من عشيرة الحمير الحساوية التي اشتهرت بنبلها وقوة أبدانها وبياض بشرتها، فهو حساوي معروف بأصله ونسبه كما ان أمي ابنة عمه أيضا، فهما من أرومة وعشيرة واحدة. علمت من حكاياته التي كان يقصها علي حين نسير في طريقنا إلى البستان لجلب المحاصيل، ان هناك ظلما كبيراً حل به.

-3 –

ما أن بلغت الحلم وفهمت ما يدور حولي، حتى جاءني البستاني بالبردعة وشدها على ظهري، قفزت وعنفصت ولكن بلا جدوى فقد كانت محكمة الشد.

- 4 -

خلال معاشرتي لأولاد البستاني وأطفاله وأولاد القرية، استطعت تعلم لغتهم، وأخذت أتفاهم معهم بالإشارات والأصوات والحركات التي أقوم بها، فمثلا إذا أعجبني قول جميل منهم أو إطراء، كشرت لهم تكشيره كبيرة، وإذا أعطاني أحدهم شيئا أو طعاما لذيذاً، هززت لهم ذيلي ومسحت رأسي بأكتافهم، وإذا قال أحد الأطفال قولاً جميلاً أو روى طرفة جميلة أعجبتني، أقوم بأداء قفزات قصيرة و أدور حوله، أما إذا سألني أحدهم عن رأي بالذهاب إلى مكان ما، وكان هذا المكان من الأماكن الجميلة التي اعرفها، كثيرة العشب، فيها جدول عذب المياه، ترتاده الحمير وبعض الأتن الجميلة، سارعت بهز رأسي موافقا و أطلقت صوتا رقيقا يشبه صوت المرأة العاشقة، أما إذا أغضبني أحد الأطفال، فازعل عليه، أذهب بعيدا، لا أصفح عنه أو أكلمه إلا بعد أن يمسح على رأسي ويطلب العفو مني. بعض الأحيان يغيظني صبي ما من صبيان القرية، فاغضب عليه وأدير له كفلي لأضرط عليه.

أما إذا كان رجلا واتى بأمر لا يروق لي أو ضربني، فلا اكتفي بذلك بل أضربه بقدميّ الخلفيتين ضربة تحذير، كي لا يكرر السخافات التي لا يعرف عقباها. والغريب أن نساء القرية وبناتها كن يعرفن التعامل معي بحنان ولا يأتين السخافات مثل رجال القرية الذين كانوا يغضبون علي بسرعة حين أمزح معهم، أو حينما لا أريد الذهاب إلى حيث يشاؤون. فما زلت أذكر تلك الفتاة ذات القوام الرشيق الشبيه بقوام أختي الحمارة البنية ذات العيون السود، كانت الفتاة تدللني كثيرا وتتقاسم معي خبزها الحار الذي تأخذه معها إلى حقل الطماطم والخيار.

ولا أنسى أن بعض الأولاد كانوا قساة معي فأضطر أن أعضهم أحيانا.

-5-

سمعت الأولاد يوما يتحدثون عن إرسالي إلى المدينة، قالوا إنها العاصمة، لا اعرف ماذا تعني العاصمة، هل هي حقل أم بستان في المدينة، قد تكون حقلا كبيرا لأنهم يتحدثون عنها باحترام كبير، قالوا سأذهب هدية للرئيس، ولم أكن أعلم أيضا ما هو الرئيس، ظننته كبير قومنا، أو حمارا كبيرا له جثة عظيمة.

قالوا إن رجال الرئيس وعيونه، علموا بذكائي، ومقدرتي على التفاهم مع البشر، لذلك اقترحوا اسمي، على رئيس البشر ليضمني إلى إسطبله.

في صباح يوم مشرق، بينما كنت أنعم بمضغ العلف الأخضر اللذيذ، في الحقل القريب من بيت البستاني جاء رجال الرئيس. نقلوني إلى عربة أنيقة لم أركب مثلها من قبل، أغلقوها على وسارت بي إلى مكان بعيد، بكيت لفراق أحبابي الأولاد، وفراق أمي العزيزة وأبي الطيب.

حين أنزلوني من العربة في مرعى واسع جميل، بكيت بصوت عال، توسلت إليهم، تمردت، تمرغت على الأرض، رجوتهم أن يعيدوني إلى مكاني، لم تنفع توسلاتي، حملوني وجروني بقسوة إلى الإسطبل وتركوني هناك. لماذا لا يفهم هؤلاء البشر ما نريد بينما نحن نفهم ما يريدون، حين لا أفهم بعض ما يريدون يوسعوني شتما وضربا، عجيب أمرهم كم هم أغبياء، لا أستغرب أن يقول الحمير في المستقبل حين يرتكب حمار ما خطأ، يالك من حمار غبي كأنك إنسان من فصيلة البشر.

6 –

من خلال أحاديثهم علمت أن الرئيس يريد ركوب حمار رصين فاهم ذكي، يعرف إشارات البشر ويفهم لغتهم. عجبت من غباء هذا الرئيس، وتساءلت؛ إذا كان الرئيس بحاجة إلى من يحمل هذه الصفات فلماذا لا يركب واحدا من هؤلاء البشر ما داموا يعدون أنفسهم أذكياء، بل أذكى منا نحن فصيلة الحمير، لا بد أن في الأمر ما يريب.

7-

ربطوني في الإسطبل مع الخيول، وقالوا هذا إسطبل خيول الرئيس، كان إسطبلا غنيا بالعلف، تحيط به المروج الخضراء، ولكن المعيب فيه أنه محاط بسياج من خشب، خلفه أسيجة أخرى من مشبكات حديد، تجعل فراري وعودتي إلى أهلي ومكاني الأول مستحيلة، سأحاول توطين نفسي على قضاء أوقاتي مع الخيول، رغم إنها لا تفهمني بشكل جيد، مع ذلك فهي تفهم لغتنا أفضل من البشر، سأتحدث إلى تلك الفرس، أحاول أن أعلمها لغة أجدادي فهي قريبة من لغة الخيول، تبدو فرساً جميلة وذكية، لاقترب منها واحتك ببطنها لأجعلها تشعر برغبتي في الحديث إليها، سأغني لها أغني: نحن الحمير نفعنا كبير.

حدثتني زميلتي الفرس الساحرة عن الرئيس، قالت إنه شخص كبير الجثة، منتفخ البطن ثقيل الوزن، لا يعرف ركوب الخيل، لذلك فهو يجلس في عربة ذهبية كبيرة ونحن الخيول نجرها.

انه لا يعرف غير الهذيان، لا نفع فيه، حتى حين يصعد العربة يأتي بأربعة أشخاص لمعاونته على الصعود. انه لا يستطيع حمل عدل واحد مما يحمل أصغر حمار.

9 –

أخذوني يوم أمس للمستشفى الرئاسي وقصوا أذني، قالوا إنهما كبيرتان، يجب أن تكونا مثل أذني الحصان، وأضافوا باروكة شعر إلى ذيلي، ربطوا إليه جديلة شعر طويلة،

علمت أنها جديلة شعر جلبوها من سيريلانكا، استوردوا منها مجموعة لي خصيصا وأودعوها لدى حلاق خاص يقوم على زينتي وقص شعري ومكياجي.

- 10 -

غدا سأشترك في سباق الخيل. تقرر ذلك باعتباري حصان الرئيس، ويجب علي أن اثبت قدراتي و أتغلب على بقية الخيول، عجبت من اشتراكي، أنا الحمار ابن الحمار، بسباق مع الخيول الأصيلة، لابد سأكون الخاسر الكبير فيه، كيف سأركض مع الخيول وأسبقها، لاشك أنني سأخذل الرئيس، يا عيب العيب، سأموت من الخجل وأنا اركض خلف الخيول. هل أتمكن من الخروج من هذا السباق، أريد أن احتج على اشتراكي في سباق مع الخيول، انه سباق غير متكافئ، ولكن من الذي يقف معي في احتجاجي؟ سمعت أن سفارة الهند ببغداد احتجت على اسم حصان في سباقات الخيل يحمل اسم غاندي، وقد استجابت إدارة نادي الفروسية (الريسز) وأبدلت الاسم إلى (الفقير). لماذا هل كان غاندي فقيرا؟ لا أعرف، هل أذهب إلى سفارة لها قرابة مع الحمير كي تحتج على إشراكي في سباق ظالم مثل هذا؟ أم هل هناك هيئة متحدة للحيوانات مثلما للبشر أمم متحدة؟! كيف الوصول إلى مؤسسة تدافع عني. سمعتهم مرة يتحدثون عن ممثلة فرنسية اسمها باردو قالوا إنها تدافع عن الحيوانات، هل الفرنسية قريبة إلى لغتنا، لغة الحمير، هل تفهمني لو تحدثت إليها عن مصيبتي مع هذا الرئيس ؟

11-

اليوم، يوم السباق الكبير

أحضروني إلى الملعب بسيارة جميلة، أدخلوني إلى حمام واسع مشيد بالرخام الأبيض، غسلوني بالصابون المعطر، جففوا شعري بالات كهربائية تنفخ الهواء الساخن على جسدي، علقوا بذيلي باروكة شعر تنسدل إلى كاحلي، ألبسوني لجاماً فضياً وربطوا السرج الناعم والغطاء الحريري فوق ظهري، وقادوني إلى وسط الملعب وسط تصفيق الناس وتهليلهم، أمسك غلام رهيف القد خفيف الوزن بلجامي وأخذني برفق إلى منصة الرئيس فنهض علية القوم احتراما لوصولي واخذوا يصيحون، عاش الحصان الأصيل، يحيا الحصان الأصيل. كانوا يصفقون بحرارة أخجلتني، نظرت حولي كي أرى الحصان الذي يصفقون له فلم أجد حصاناً، أنا الوحيد الذي يقف قرب المنصة، إنهم ينظرون الي ويصفقون، أنا المعني بكل هذا التصفيق، ما الذي يحدث، صحيح أنا حمار أصيل من سلالة حمير نجباء، ولكني لست حصاناً يا ناس، ما هذا الغباء؟ كيف تدعونني حصانا لمجرد قص أذنيّ وربط جديلة شعر إلى ذيلي؟ هل بلغت بكم السذاجة وقصر النظر هذا الدرك الأسفل أم إنكم تتملقون رئيسكم؟

بعد أن قادني السائس بعيداً عن المنصة، سمعته يتحدث إلى طبيب الرئيس الخاص، الذي حضر خصيصاً ليشرف علي أثناء السباق، فتح الطبيب فمي ونظر إلى أسناني وقال للسائس: اطمئن، سيغلب جميع الخيول.

عفطت عليه بقوة، فهرب من أمامي. أي طبيب هذا الذي يزعم أنى سأغلب الخيول الأصيلة. والله لو كان يفهم كلامي لأسمعته أخشن شتيمة، لقلت له اغرب عن وجهي يا آكل اللحم، ألست أنت الذي يأكل كل يوم رأس خروف وأحشاءه دون خجل، أي بشر أنت يا من تفطر صباحا على الباجة أو المعاليق!! وتقول إنك طبيب، وتزعم أنى سأغلب في السباق! طززز ...

حين وضعوني في صندوق الانطلاق، اصطفت الخيول إلى جانبي قبل إطلاق رصاصة الانطلاق. علمت من الفارس الذي يمتطيني من خلال حديثه إلى فارس آخر، أن الخيول المتسابقة أعطيت طعاماً ثقيلاً قبل السباق بقليل فهي متخمة لا تستطيع الركض. حين فتح باب الصندوق وسمعت صوت رصاصة الانطلاق، لكزني الفارس بقدمه، وجلدني بسوطه، انطلقت بقوة، ثم شعرت بحرقة كبيرة أفقدتني شعوري وجعلتني انطلق كالمجنون أمام الجميع، حتى كاد الفارس أن يسقط من فوق ظهري، وصلت خط النهاية قبل جميع الخيول. علمت فيما بعد أنهم وضعوا لي في دبري فلفلا أحمر حارا، جعلني أفقد صوابي وأنطلق بسرعة لا مثيل لها في السباق.

وهكذا غلبت الخيول الأصيلة المسكينة المتخمة.

أخبرتني حبيبتي الفرس الساحرة قبيل الغروب حين خرجنا للنزهة، بأنني جريت راكضاً في السباق حتى بعد خط النهاية بمسافة طويلة، وقد عانى الفارس صعوبة كبيرة في إيقافي. كان فخامة الرئيس وصحبه من علية القوم يصفقون لي وهم وقوف على رؤوس أصابعهم، وأنا أهز بذيلي محاولا إطفاء حرقة الفلفل الأحمر، تصفيق... تصفيق.

***

الرجل الذي صار قردا

انتشرت في المدينة الصغيرة اشاعة الرجل الذي صار قردا، وزاد عليها البعض بان الانجليز صنعوا رجلاً يقفز كالقرد ويستطيع الطيران والانتقال بين اشجار النخيل بخفة منقطعة النظير، وكان أكثر المهوسين بهذه الاشاعة السيد عليوي.

تحدث بها إلى مجموعة من رواد مقهى الحويزاوي، مقهى رجل جاء من الحويزة فصنع له سقيفة من الحصران و نصب موقداً – وجاغ – واخذ يبيع الشاي والقهوة فأصبحت ملاذا لبعض الباحثين عن الهدوء بعيداً عن ضجيج المدينة، يلتقون مساء في تلك المقهى الواقعة على ضفة النهر الصغير.

عرف السيد عليوي بلقبه السيد الذي حصل عليه بالقوة، فهو لم يكن من نسب الرسول، وانما استطاع فرض لقبه على الناس لأنه كان يملك مخبزا لبيع الخبز الحكومي الذي كان مشهورا في اوائل الستينات من القرن الماضي، ويسمى خبز معمل، وهو الخبز المدعوم من حكومة عبد الكريم قاسم، يباع بأسعار رخيصة.

كان عليوي يسرع في منح الزبون الذي يناديه سيد عليوي ما يريد من الخبز دون ان يفرض عليه عددا محدودا من الأرغفة التي لا تتجاوز العشرين في احسن الاحوال حسب الشروط المكتوبة على ورقة ملصقة امام الباب المخبز.

وغالبا ما تسمع الناس يصيحون بروح جدك سيد عليوي، أو سيد يرحم والديك ناولني حصتي من الخبز، كان لقب السيد جواز السفر لحصول الفقراء على ما يحتاجون من خبز، يتجمعون امام مخبز السيد عليوي منذ ساعات الصباح الباكرة في انتظار ارغفته التي يأملون ان تشبع بطون اطفالهم، حتى أن جليل الملا وهو شاب متعدد المواهب عازف ايقاع، خطاط، قارئ حسيني في عاشوراء و مغني في العيد، الّف قصيدة وغناها في خبز معمل سيد عليوي من لون المربع، كان يغنيها بصوته العذب مرددا اللازمة التي ظلت عالقة بأذهان الناس :

ياكل ما ياكل يتأمل ..... خبز المعمل

شاع اسم سيد عليوي بين الناس حتى صدق هو نفسه ذلك فاخذ يلف على وسطه حزاما من قماش أخضر، ويرتاد المجالس ليدلو بدلوه في الحلال والحرام، وأصبح له حضور دائم في مجالس الخطوبة والزواج، فهو مفوه في الكلام، يأخذ على عاتقه افتتاح

الجلسات بالصلوات والأدعية التي حفظ قوالبها وطريقة أدائها خاصة اذا شرب سيجارة روثمان التي يتحفه بها صاحب الدعوة.

ظل عليوي يحمل لقب السيد حتى بعد اغلاقه المخبز وتحوله إلى بيع الدجاج. وبالإضافة إلى هذه السمات والمسحة الدينية الا انه لم يكن يمتنع عن الذهاب إلى السينما حين يصطحبه بعض اصحابه من هواة اللهو الذين كان يوبخهم بعد كل ورطة سينمائية فاضحة ويتهمهم بأنهم (على المودة) وانهم لا يحفظون شيئا من تقاليد الاجداد ولا يعرفون العامي من الشامي او العامة من السادة.

لا أحد يعلم كيف وصل فلم سوبرمان إلى تلك المدينة الصغيرة فأصبح له دوي كبير وارتبط مع اشاعة صناعة الانجليز للرجل القرد، فقررت شلة سيد عليوي اصطحابه معهم إلى السينما ليتأكد بنفسه كيف استطاع الانجليز خلق انسان يطير في الهواء.

ما ان بدأ عرض الفيلم حتى فغر الناس افواههم عجبا حين شاهدوا طيران سوبرمان بين العمارات الشاهقة وقفزاته الهائلة، فما كان من سيد عليوي الا أن ينهض ويصيح الله وأكبر (بشر يطير ولكم هاي وين صايرة) ورفع نعله الحياوي الشهير وقذف به الشاشة الفضية، فتبعه بعض الأولاد واخذوا يقذفون قناني البيبسي كولا الفارغة والاحجار على الشاشة، فاضطر صاحب السينما اإى إطفاء الانوار، وترك عامل تشغيل السينما مكانه فظل الفلم يدور بشكل متقطع غير متسلسل.

حاول صاحب السينما انقاذ الموقف، فأسرع إلى أحد وجوه المدينة المدعو (حجي نهابه) وكان يسكن قريبا من السينما، معروف بحبه لنيل المكرمات وعطايا علية القوم، جاء به لينقذ الموقف، فالناس مازالوا متجمهرين داخل وخارج السينما وقد يضرمون النار ويحدث ما لا يحمد عقباه.

أسرع الحاج نهابه ووقف أمام الجموع بقامته الفارعة ووجهه الابيض المنير وعلى رأسه عمامة صفراء يعتمرها الحجاج، فصاح بهم بصوت جهوري: السلام عليكم، كفيتم ووفيتم، أطلب منكم عدم الاعتداء على الاعمار والتوجه إلى ضرب الاستعمار، عليكم الذهاب إلى بيوتكم، وكل من يعصي امري هذا سأدعو عليه في صلاتي.

ثم رفع يديه إلى السماء وصاح: اللهم امسخ كل من لا يذهب إلى داره قرداً، واحشره مع القردة الخاسئين.

انتشرت الهمهمات بين الناس، منهم من راح يثني على دعوة الحاج نهابه ومنهم من راح يشرح كيف يخسر من يعصي أمر الحاج في الدنيا والاخرة وتصبح امرأته طالق، وغير ذلك من الأقاويل التي ظلت تسري بين الناس حتى أخذ الحشد يتفكك شيئا فشيئا

واخيرا تفرق شملهم وخلت السينما من الناس فاستعان صاحب السينما بمجموعة من الكناسين في الشارع لإعادة الامور إلى نصابها.

في طريقهم إلى البيت كانت شلة السيد عليوي تزداد عددا وكان من بينهم المعلم جواد البنا الذي كان مسافرا إلى اوروبا في الصيف الفائت. اخذ يحدثهم عن القردة في بعض الديانات وكيف انها تحظى بالاحترام بين الناس، وضرب لهم مثلا بالقردة لدى الهنود، الذين يعتقدون بانها حاربت إلى جانب نبيهم راما في حربه مع الشيطان رافانا وانتصر بفعل مساندة جيش القردة له، فاستطاع تحرير زوجته سيتا من الاسر والانتصار على الشيطان رافانا.

كما أخبرهم المعلم جواد البنا ان في بلاد الانجليز جمعيات محترمة تدافع عن القردة والحيوانات وان في لندن كان يعيش عالم كبير يدعى دارون يقول إن أصل الانسان قرد، فرد عليه السيد عليوي قائلا إن هذا غير ممكن وحاججه قائلا:

لو آمنا ان اصلك قرد وان اباك أصله قرد ايضا، فهل يعقل أني انا السيد ابن السادة الكرام ابا عن جد، ان يكون ابي قرد او جدي قرد!! استدار إلى المجموعة متسائلا: ماذا ترون، هل هذا ممكن؟ هل يحتمل ان يكون أصلي قرد انا السيد الهاشمي؟! ... فصاحوا جميعا استغفر الله...استغفر الله.

اضطر المعلم جواد البنا ان يتدارك الامر ويؤكد ان هذا لا ينطبق علينا نحن المسلمين، وانما فقط ينطبق على الانجليز، هم وحدهم قرود أبناء قرود، أما نحن فبشر أبناء بشر وإن نسبنا يعود إلى آدم عليه السلام وآدم من تراب. فصاح سيد عليوي بأعلى صوته وكأنه يؤذن: اللعنة على دارون، وحين سأله أحد المارة ماذا يقول ؟ أجابه انهم يلعنون قرداً ابن قرد من بلاد الكفار اسمه دارون، ودعاه ان يقول معهم: اللعنة على دارون!

سار الجميع في الازقة المتربة وهم يهزون رؤوسهم وينغمون الكلمات: اللعنة على داروووون.

***

القسم الثاني

ولد ببغداد

تناول موظف السجل المدني قلمه وثبت نظراته على السجل المفروش أمامه وسأل الرجل المنتصب على بعد مترين منه كتمثال ذي أرجل نحاسية عن مكان ميلاد ابنه، همهم حسين الصفار، ربما لأول مرة دون حشرجته التي لازمته بسبب التدخين، وقال بصوت متهدج: ولد ببغداد. ثم التفت حوله فوجد مقعداً خشبياً يسار طاولة الموظف، انحنى بتؤدة وتكوم عليه، وما لبث الموظف أن ناوله ورقة كتب أعلاها بخط فارسي جميل (شهادة وفاة).

تناولها حسين الصفار وطواها دون أن ينظر إليها، لفها بأصابع جافة كالقصب الأصفر ودسها بين ثنايا ردائه، وحين استدار متجهاً نحو الباب، ردد الشرطي الضخم الجثة الجالس قرب الموظف: مع السلامة.

كان هذا الرجل الذي لم ينتبه إلى وجوده حسين الصفار هو عين الشرطي الذي هرع إلى دارهم يوم أعلموا الشرطة بانتحار ولدهم فاخر.

سأل الموظف: أتعرف الرجل؟

ـ نعم، فقد كنت ضمن مفرزة الشرطة التي ذهبت للتحقيق الأولي في الحادث، حادثة انتحار ولده فاخر حسين الصفار، الذي سلمته شهادة وفاته للتو.

بعد هنيهة رشف الشرطي خلالها قليلا من الشاي، اعتدل بجلسته واسترسل بالحديث دون أن يسأله أحد عن التفاصيل وقال: لقد أخبرتني جدته أنه منذ الصغر كان يهتم بالأدوات المتحركة والمضيئة، وأنه كان مغرما بفتح مصباح والده اليدوي وكسر المصباح الصغير المتوهج بداخله محاولا التعرف على مصدر الضوء الذي ينبعث منه. وأنه حين دخل المدرسة أتقن الكثير من الأعمال الفنية التي كان معلم العلوم يجهد في تعليمهم إياها، ومازالت الجدة الفارعة تذكر يوم صنع حفيدها فاخر جرسا يدق دقات رنانة كانت مثار إعجاب الأهل والجيران، لقد كان شابا عصاميا استطاع إدارة محل تصليح الأجهزة الكهربائية وهو لما يزل طالبا في الثانوية.

قطع الحاج هاشم حديث الشرطي حين جاء بالشاي من جديد وتمتم: تفضل عمي.

سعل الشرطي سعالا خفيفا وأكمل حديثه دون انتظار خروج الحاج هاشم: لا شك أنك تعجب من انتحاره وهو الشاب الحريص على إعالة أسرته؟

هز الموظف رأسه هزة خفيفة ورفع كأس الشاي ليبتلعه برشفتين اثنتين فقط، ثم أكمل الشرطي حديثه: نعم، إنه أصبح معروفا بإتقانه تصليح لأجهزة الكهربائية، لذلك، في مساء أحد الأيام، وبالضبط، مساء اليوم الذي سبق انتحاره، استدعاه مدير المدرسة الثانوية من الصف وأخبره بأنه مطلوب للذهاب إلى مركز الشرطة ومرافقة الشرطي الذي جاء خصيصا ليرافقه على وجه السرعة ليربط جهازا كهربائيا لديه.

حاول فاخر التعلل بالامتحانات، إلا أن المدير أغلق عليه باب الاعتذار وقال له مداعبا: اعتبر نفسك ناجحا في جميع الامتحانات الفصلية. طلب منه مرافقة الشرطي لان مدير المركز نفسه اتصل به هاتفيا وأكد عليه أهمية العمل المطلوب.

لم يكن أمامه إلا الذهاب مع الشرطي. وحين وصل إلى مركز الشرطة استقبله مفوض الشرطة واقتاده إلى كبيرهم الذي سأله عن اسمه، ثم طلب من المفوض أن يذهب مع فاخر إلى الطابق الأرضي في المركز ليخبره عن العمل المطلوب، وأردف قائلا: الجهاز بسيط، أريد إكمال ربطه ونصبه هذا المساء. وأضاف بلهجة آمرة للمفوض: لا تنس أن تعطيه مبلغاً جيداً مكافأة له حال إنجازه العمل.

ربط فاخر الجهاز وفق الكتيب والخرائط فاستغرق نحو أربع ساعات متواصلة في العمل، كانت تتناهى إلى سمعه خلالها أصوات عويل وصراخ آتية من الحجرة الملاصقة لمكان عمله، حيث يربط الجهاز، وبعد أن انتهى من العمل طلبوا منه الانتظار في غرفة أخرى ريثما يجربوا الجهاز ويتأكدوا من صلاحيته.

كانت الأصوات تزداد عويلا وأنينا فتخترق أذنه حيث جلس ينتظر، وظنه الشرطي الذي جلس إلى جانبه أنه أحد عملائهم فقال له، إنهم يستجوبون سياسياً عنيداً وسيعذبونه بواسطة الجهاز الذي قام بربطه، فهو جهاز ثمين جلبوه من مقر الأمن السياسي العام، وهم يعولون عليه في كسر عناد كل من يرغبون بتصفيته.

قطع المفوض حديث الشرطي حين دخل وشكر فاخر، وناوله خمسين ديناراً، لم يعرف فاخر كيف يرفضها، ولم ينس المفوض أن يطلب منه حين ودعه أن يحتفظ بالأمر سرا.

في اليوم التالي ـ قال الشرطي ـ حين دخلت مفرزة الشرطة غرفة فاخر حسين الصفار، وجدوه قد ربط معصميه بأسلاك كهربائية، وقرب جثته المتفحمة رسالة بين فيها سبب انتحاره ومعها الخمسون دينارا كاملة.

* * *

قوس وقزح

تساقطت بضع قطرات من الماء على وجهه الواجم فرفع رأسه ليشاهد غيوما فضية تنتشر في سماء المدينة الصغيرة كالإوز الأبيض الذي يسبح في بحيرة زرقاء. كانت الغيوم المتوهجة تؤذن بانتهاء الشتاء وحلول فصل الربيع الذي أطل هذا العام وهو ينذر بحرارة غير متوقعة لدرجة أن الرجل تمنى مساء أمس أن يضع قطعة من الثلج في قدح شرابه الذي كان يرشفه بهدوء محاولا إطالة عمره أكثر ما يستطيع كي يبلغ الوقت الساعة العاشرة فيستمع إلى نشرة الأخبار قبل أن ينام أو يحاول النوم بعبارة أدق.

ورغم أنه لم يكن يتوقع حدوث شيء مهم والذي يعني لديه ثورة أو انقلاب، إلا أنه مع ذلك كان يأمل أن يسمع خبرا يعيد له بعض توازنه الذي فقده منذ اليوم الذي اختطفته فيه مجموعة من رجال الشرطة السرية ودفعت به إلى حوض سيارة فارهة استقلها لاول مرة في حياته فأقلته إلى مكان مجهول عرف فيما بعد أن اسمه قصر النهاية.

هناك رأى الرعب مرسوما على كل قطعة حجر من الأحجار، جردوه من كل شيء، بدءً بالملابس وانتهاء بالمبادئ، لم يتركوه يخرج إلا بعد أن أجبروه على توقيع وثيقة تسمح لهم بإعدامه إن ثبت اشتغاله بأي تنظيم غير تنظيمات الحكومة.

كان يعلم أنه يكذب عليهم حين أنكر علاقته بكل التنظيمات السياسية وكانوا هم أيضا يعرفون ذلك، لقد أراد كسب بعض الوقت، فالورقة التي وقعها تمثل آخر فرصة أمامه تتيح له الحصول على بضعة أسابيع يعيشها قد يستطيع خلالها القيام بشيء ما، لا يعلم ما هو بالتحديد، حتى فكرة الانتحار التي راودته قد تعني شيئا، فهو سيموت باختياره وبيده لا تحت سياطهم، ألم تقل زنوبيا يوم حوصرت : بيدي لا بيد قصير، ثم أن الأمر سيان معهم، فاسمه مدرج في اللائحة السوداء التي لا تعني سوى الموت، وغاية الأمر انهم لا يريدون قتل الجميع مرة واحدة لان ذلك قد يستفز مشاعر الناس ويؤدي إلى هياجهم، انهم يحاولون القضاء على أمثاله بهدوء وصمت كالفأرة التي تقضم في حبل متين.

تساقطت قطرات المطر أكثر فأكثر وابتل شعر رأسه فراحت يده تطوق رأس ابنه الصغير الذي كان يسير إلى جانبه، جهد أن يحفظ رأسه من زخات المطر التي اشتدت، فأخرج منديله ولف رأسه الصغير، كان يخشى عليه من الزكام، لأنه مازال واهنا جراء إصابته بالأنفلونزا ولم ينفع معه المقوى الحديد الذي وصفه له المضمد عزيز أو الدكتور كما كانوا يدعونه.

سار مع ابنه حتى وصل مقهى قلي خان والذي يسمى مقهى مجازا، فما هو إلا عبارة عن موقد معدني من الصفيح ينتصب عند زاوية عيادة المضمد عزيز التي يشكل سقفها واقيا للمقهى من مطر الشتاء وشمس الصيف.

توقف تحت السقيفة وطلب شاياً بانتظار أن يتوقف المطر، كان على يقين من أن اشتداد المطر ينبئ عن قرب توقفه، هكذا كانت تقول جدته عليها الرحمة، وآمن أكثر بحكمتها حين رأى السماء تستعيد زرقتها بحياء فامسك بيد ابنه من جديد وسارا معا.

حين رفع رأسه مرة أخرى شاهد تشكيلة جميلة من الألوان ترتسم في الأفق، زرقاء، حمراء وصفراء، تمثلت الزرقة أمامه وكأنها نهر الوند الرقراق، وأرغمته حمرة الخط المنحني في السماء على الحنين إلى استكان شاي مع الآباء الذين كانوا يجلسون حول الموقد، فهربت به الذاكرة إلى تلك الليالي التي كان يجلس فيها أمام الموقد ويضع ثمار البلوط بين جمراته ليشويها فيتطاير بعضها شظايا تثير الشرر والرماد...

ـ بابا.. هل هناك طائرة؟ سأله ابنه.

ـ لا.. لا.. أجاب وكأنه يصحو من غفوة.

ـ إذن لماذا تطيل النظر إلى السماء؟

ـ ها... هناك قوس قزح يلون الأفق، أنظر.

فتوالت عليه أسئلة الابن: أين هو قوس قزح، هل هو طائر، لماذا يظهر في السماء، وهل يظهر كل يوم؟

قلّب صفحات معلوماته عن القوس قزح فلم يسعفه دماغه بشيء ذي بال، وكان كل ما يعرفه هو ان قوس قزح يظهر بسبب تحلل أشعة الشمس، إذ تقوم قطرات المطر مقام المواشير البلورية فتظهر الألوان المختلفة في الأفق... ولكن كيف يشرح الأمر لطفل عمره خمس سنوات؟

اضطر إلى تبسيط الأمر فأخبره ان الألوان المختلفة تظهر في السماء حين يهطل المطر بينما الشمس مشرقة.

ثم أنقذه وصولهم إلى البيت من إلحاح الابن وإلحافه في الأسئلة، إذ أسرع يعدو تاركا أباه ينقل خطواته بتثاقل ازداد تباطؤا حالما رأى سيارة الشرطة السرية تسير .... إن الحبل يضيق شيئا فشيئاً.

ـ ماما... ماما، انتبه على صوت ابنه ينادى أمه.

فها هو يدخل الدار دون أن يعتقلوه، هل يلعبون معه لعبة القط والفأر، كان يعلم أنّه سوف لن يرى الربيع القادم إذا استمرت الحكومة القائمة، فهم يضيقون الخناق عليه ويراقبونه، ووصل معهم إلى الطريق الذي لا عودة منه.. لقد بدا كمن يستعجل أمرا حين قال لزوجته وهو يشير لابنه:

ـ أوصيكِ أن تطلبي من معلم المدرسة أن يشرح له شيئا عن قوس قزح في العام القادم.

* * *

عقوبة الهرب

تحلق الرجال حول شجرة التوت الشامخة أمام إسطبل الشيخ، وكان الوجوم المرتسم على وجوههم ينذر بوقوع مصيبة أو كارثة لا أحد يعرف شكلها، ولم تكن لأي واحد منهم الجرأة على مناقشة الأمر، فقد فضلوا الصمت الذي استطاع غراب فاحم اللون حط قريبا منهم أن يمزقه، إذ صوّت أصواتا متقطعة وقفز مبتعدا عنهم وهو يحدق فيهم بحذر. حينذاك صاح واحد منهم يحمل مسحاة على كتفه: كش،

يا وجه الشوم.

كان عددهم يربو على ثمانية رجال، يتوسطهم رجل يعتمر عمامة بيضاء أكسبته وقارا رغم صغر سنه، بينما كان البعض منهم يلف رأسه بخرقة بقعاء والبعض الآخر يضع على رأسه طاقية ملونة.

قال رجل منهم وهو يشد على لجام حصانه بيده: إنهم على وشك الوصول.

لم يعلق على كلامه أحد، فأردف هو نفسه مضيفا: ألا نجلس ريثما يصلون؟

لم تكد تمر بضع دقائق على انتهاء جملته حتى ظهرت من خلف أشجار الصفصاف المنتشرة على سفح التل القريب ثلة من رجال تمتطي الخيول وتتجه نحوهم.

حين اقتربت الثلة من المجموعة المنتظرة قرب شجرة التوت. ظهر خلفهم رجل يمتطى بغلا وقد أوثقت يداه وشد إلى البغل شدا.

ألقى رجل من الثلة بالسلام دون ودّ على المجموعة وأشار إلى مرافقيه أن أنزلوا الرجل من على البغل. أنزلوه واقتادوه إلى شجرة التوت. جعلوه يحتضنها، ثم شدوا يديه ولفّوا الحبل على وسطه، فأحكموه إلى الشجرة وشدوه إليها بقوة.

كان الرجل أشعث الشعر كثيفه، بان الهزال عليه رغم امتلاكه بنية قوية. وتميزت نظراته بقسوة بالغة تحمل الجزع والتأنيب لكل من حوله.

قال أحد رجال الثلة التي كانت تقتاد الرجل: سيصل الشيخ بعد قليل، بإمكانكم الجلوس.

قلّب الرجل المربوط إلى الشجرة نظراته ودار بها على الحاضرين، فرأى ثلة من جلاوزة الشيخ تأسره وتوثقه إلى شجرة، وسط مجموعة من رجال القرية تعمل في خدمة الشيخ، تتحلق حوله بانتظار تنفيذ العقوبة بحقه، تلك التي يقررها الشيخ حال وصوله.

لقد اعتاد الشيخ إصدار عقوباته كل أسبوع وذلك حين يتصدر ديوان القرية الذي يجتمع فيه الرجال ليلة الجمعة: عشرة أسواط.. عشرون جلدة... عشر خيزرانات.. وهكذا دواليك.

إنه يتذكر الآن آخر حكم أصدره الشيخ.

لقد كان حكماً بحق سارق خروف من أغنامه.

ـ ثلاثون جلدة. صاح الشيخ.

أكلها الرجل مع أنه لم يذق لحم الخروف الذي سرقه.

ورغم الوقائع التي يتذكرها جيدا، فهو لا يعرف تفسيراً لحكمة الشيخ الذي أجل العقوبة وقال:

ـ خذوه يوم غد واربطوه إلى شجرة التوت عند الإسطبل، سأحضر هناك وأحكم عليه.

أغمض الرجل عينيه فانهالت عليه أكداس الأعشاب التي كان يجمعها كل يوم من حقول الشيخ. كان عليه أن يجمع كل يوم حمل حمار من أعشاب الزؤان وغيرها من الحشائش الضارة من الحقول. يحضرها إلى الإسطبل ليفحصها ويرى كميتها العبد العملاق الذي (يشبخ) فوقها ليقيسها، فان كانت أقل من الكمية المفروضة، فالعقاب ينفذ حالا بخيزرانة مملحة جاهزة لهذا الغرض.

حين سأم الرجل كل ذلك، قرر الهرب وترك الشيخ مع وأرضه وعبيده.

قبضوا عليه في المدينة التي هرب إليها وأعادوه إلى هنا، وها هو مقيد إلى شجرة التوت بانتظار العقوبة التي قد تتجاوز هذه المرة كل العقوبات السابقة التي عرفها، فالشيخ غاضب أشد الغضب، ولربما لهذا السبب أعرض عن إصدار العقوبة يوم أمس.

كم جلدة ستكون؟ وهل ستكون جلدات سوط أم ضربات خيزرانة، أم ستكون عقوبة أخرى، ما هي يا ترى؟

ألا يفكر الشيخ في العفو عنه رفقا به وبعياله؟ ربما لهدا السبب لم يصدر الحكم عليه يوم أمس؟ كان مشغول الفكر والبال بالعقوبة ونوعها حين سمع أحدهم ينادى :

ـ لقد وصل الشيخ حياه الله.

هبّ الجميع قياما لاستقباله.

نعم، لقد وصل الشيخ حياه الله وبياه.

كان برفقته أربعة رجال، أحدهم تطوق وجهه لحية بيضاء صبغها بالحناء، وهو الذي يدعونه الملا، أما الآخر الذي يسير على يمين الشيخ، فرجل قميء يضع طربوشا أحمر على رأسه، قالوا إنه ضيف الشيخ الذي قدم من المدينة قبل أيام قليلة، والرجل الثالث الذي كان يسير خلفهم هو الحارس الشخصي للشيخ، يحمل على كتفه ليل نهار بندقيته البرنو، ورجل رابع ضخم الجثة خادم الشيخ.

وقف الشيخ ورجاله أمام الرجل المربوط إلى الشجرة، واصطف بقية الرجال خلف الشيخ، كونوا حلقة غير منتظمة أحاطت بالرجل الذي رفع رأسه إلى أعلى الشجرة فرأى عصفورا صغيرا يغرد أعلاها.

تنحنح الشيخ ونظر إلى ثلة الرجال وقال بصوت أجش:

ـ عرّوا مؤخرته وادخلوا عصا المسحاة في أسته.

* * *

الشرطة وبنات آوى

حين يهجم الليل تنفتح أبواب كهوف مظلمة تحتضن الضباع و السعإلى. وفي أوائل كل صباح، أو قبل صلاة الفجر، كما كان يقول جدي، تحاول أن تمد أصابعك الناحلة لتلمس أضلاعك الجافة أثناء تقلبها على البلاط الإسمنتي للزنزانة التي تحمل رقم تاريخ ميلادك أو الرقم المساوي لتعداد سكان العراق. وها أنت تحلم... تحلم رغم القيء الذي مازال ملتصقا على ثنايا ذقنك الناتئ العظام، وتدور في مخيلتك الصامتة فكرة الإطاحة بنظام ديناصوري يجثم على صدور الناس، فتتذكر أهزوجة ريفية ترسم هزيمة للشرطة وتبشر بنات آوى بطعام سمين: الشرطة سمان أبشر يالواوى....

ثم تُحلق أبعد من ذلك فتشيد مسرحا في زنزانتك لتظهر في ركن منه مجموعة من النسوة معصوبات الرؤوس يهللن مشجعات لأجساد تتراقص وسط المسرح وتضرب الأرض بأقدام قوية فتعصف الرياح وتزمجر مدوية لتنطلق بغضب نحو القصور المشيدة على الجانب الأيمن من نهر دجلة لتطيح بها. تلك القصور التي بناها مهندسون مهرة جاءوا من البلدان البعيدة كي يشيدوا قصورا تقبع فيها جرذان لا تعرف حتى استعمال دورات مياهها، فاسمع ما قالته العمة لأحدهم: لك بومة، لازم تقعد على حوض المرحاض وتعملها، موش تقعد بحوض البانيو، هذا حمام...

كانت محاولة جريئة منك للهرب، ولكن لعن الله الشرطة، فهاهم يعيدونك إلى الزنزانة الحجرية على أنغام ركلاتهم و أعقاب بنادقهم، فتنظر إلى الجدران بعيون اختلطت فيها المياه والدماء فغدت حمراء يتخللها بياض أرمد، وتحدق مليا فترى كومة جسد بشري أمامك تخاله لأول وهلة شبحاً من أشباح مقبرة النجف، فيأتيك صوته المتهدج كأنه آت من فجوة في السماء : أنا محمود... من مدينة شقلاوة.

اليوم استطاع استرداد أنفاسه واطمأن إلى ضيف الزنزانة الجديد فحدثه عن مدينته وعيون مياهها الباردة فما كان منك إلا أن تبادر بالحديث كي تقطع شريط الذكريات الذي لا يثير إلا الشجن، وتحكي له حكاية الشرطة وبنات آوى، يوم دحرت عشائر الجنوب قوات الشرطة وتركت جثثهم طعاما لكلاب البرية ووحوشها وضواريها، فتعالت الأهازيج: الشرطة سمان أبشر يالواوى...فيبدأ محمود بالابتسام ثم ينهض متثاقلا ليرسم بالونا على جدار الزنزانة الكالح ويردد أغنية من شعر فائق بي كه س يشبه فيها وحدته بالزنزانة بوحدة القمر في السماء.

الآن تذكر من جديد محمود أو الكاكه محمود كما كنت تناديه، ونأخذ بترديد أغنيته تلك والترنم بها، وتلمس جنبك الأيسر لتتفحص الكدمات التي تقض مضجعك... وآه لو كنت تستطيع الهرب من هذه الزنزانة..

اللعنة، لقد أغلقوا جميع المنافذ بإحكام واحتاطوا لجميع احتمالات الهرب، فمنذ اليوم الذي هرب فيه السجناء من سجن الكوت بواسطة النفق الذي حفروه بملاعق الطعام والسكاكين الصغيرة، بأيديهم وأظافرهم، تحرص إدارات السجون على إكساء أرض الزنزانات بالإسمنت بين عام وآخر.

كيف السبيل إلى مغادرتك أيتها الزنزانة، إلى هناك حيث العصافير تطير وتغرد، حيث الفتيات الجميلات ينتظرن الأحبة...

وفوزية.. ماذا تقرأ الآن، هل مازالت تقرأ القصص الرومانسية. وأحلامها لمن ستقصها بعد أن طال هذا الغياب.. اللعنة، لا تدع اليأس يراودك، فلا بد أن تكون هناك وسيلة للهرب، واحتمالات أخرى تجهلها، وإلا لماذا كل هؤلاء الحرس والعسس؟

أن تخرج من هذه الزنزانة حلم وأي حلم! أن تنطلق من بين هذه الجدران إلى الفضاء الرحيب، حلم جميل أنى له أن يتحقق!

في اليوم الأول الذي تخرج فيه من هذا القبر وتضع أقدامك على أرض جديدة، يجب عليك أن تبحث عن بندقية، فالكفاح بلا بندقية كجامع بلا محراب، كما كان يقول حميد، عضو القيادة المركزية يوم ذاك...

كنا نضحك من مقولته تلك حتى رحل إلى أهوار الجنوب حاملا بندقيته، فتكالبت عليه شرطة الحكومة وأجلاف الهور والبعوض، الشرطة تطلب رأسه لأنه يحمل السلاح من أجل إسقاط الحكومة، والأجلاف يتربصون به كي يقتلوه ويحصلوا على بندقيته الكلاشنكوف، والبعوض يهاجمه لان رائحته غريبة..

كم مضت من الساعات على إعدام الكاكه محمود.. لقد كان متهما بانتمائه إلى البيشمركة. والحقيقة أن من مثله ليس بحاجة إلى تهمة كبيرة لكي يعدم، يكفي كونه كرديا.. كان جلاد المشنقة يعدم يوميا العشرات منهم قبل شروق الشمس، وحين سألته هل الشنق مؤلم؟ أجابني بلهجته الموصلية: لا، أبدا، قرصة ذباني.

لقد مضت ساعات وربما أيام على إعدام الكاكه محمود، وأنا أيضا بتُّ لا أعلم المصير الذي ينتظرني، بدأت شكوكي تزداد بنواياهم غير المعلنة، والكتمان الذي يتظاهر به الشرطي القائم على حراسة ممر الزنزانة، زنزانة ... سجن ... تعذيب ... إعدام..،

تـرى، لمـاذا أعـدموا الكاكـه محمـود قبلـي؟ لأنـه مـن المعارضـين للحكومـة؟ ولكننـي معارض أيضا.

-قد يكون السبب رفعه السلاح ومقاومة السلطات، قال الشرطي الذي اقتادني إلى ضابط التحقيق للمرة الأخيرة.

سأترك الأسئلة جانبا وأفكر في طريقة للخلاص من هذه الزنزانة.. لو كان بإمكاني الهرب والنجاة من هذا السجن لكنت اعرف كيف ستكون المقاومة، فلا كفاح بلا بندقية ولا جامع بلا محراب، لقد غرزت مخالب الحكومة بأجسادنا كما تغرز السكين بالزبدة، كنا نجيد القراءة والنقاش ولم نكن نجيد استعمال البندقية، كان أبو علي مسؤول خليتنا يقول إن السلاح آلة الجريمة وعلينا أن نبتعد عن استخدامه، وان الحفاظ على خيط التحالف مع الحكومة ضروري ريثما تنضج الظروف الموضوعية لتغيير النظام بخسائر أقل...

آه.. كيف السبيل إلى الخروج من هنا، وكم الساعة الآن، هل هو الفجر، أم مازال الصباح ينتظر صياح الديك ليبزغ... وجدي هل مازال مداوما على النهوض قبل شروق الشمس ليحمل إبريقه الفضي المزخرف وينتصب وسط باحة الدار ليتوضأ ويصلي بصوت جهوري يوحي لأهل الدار بالاطمئنان.

قطع عليه حبل أفكاره صوت حارس السجن يناديه...

تناهت إليه جلبة ثلة من رجال الشرطة أمام باب زنزانته...

جاءوا ليأخذوه قبل أن تشرق الشمس...

* * *

السكين

لم أكن أعلم كم من السكاكين يحتاج البيت، ولكنني كنت أعرف أن علي أن أحمل سكينا للدفاع عن نفسي عند الضرورة. فطرقاتنا مظلمة، والبلدية لا تكلف نفسها عناء إنارة الأزقة الموحلة أو حراستها من اللصوص المتربصين بالمارة والعائدين إلى بيوتهم ليلا.

كان ذلك قبل سنوات. يومها ذهبت برفقة أبو خضير لنختار سكينا، فهو أكثر أفراد شلتنا خبرة واهتماما بالسكاكين، وغالبا ما كان يحمل معه أكثر من واحدة، فهو من المغرمين بالسكاكين ذات المقابض العاجية، يقلبها بين يديه متغزلا بالمقبض المنحوت على شكل رأس غزالة أو سمكة.

حين وقفنا أمام دكان بائع السكاكين حميد ابن العورة، قال لي أبو خضير وهو يشير إلى سكين كبيرة معلقة على الجدار:

ـ أنظر لتلك السكين البراقة، إنها تذبح البعير.

ـ وما فائدتها لي، لست قصابا للإبل، ثم أنها كبيرة ويصعب حملها.

ـ حسنا، خذ تلك السكين المعقوفة كمنقار الصقر. قال ابن العورة وهو يقلبها أمامنا: إنها غالية الثمن، يوم أمس بعت أختها بثلاثة دنانير.

قلب أبو خضير شفتيه ولمسها برقة، فما كان مني إلا أن تدخلت بسرعة طالبا من صديقي تركها لأني لا أستطيع دفع ثمنها.

ـ ناولنا تلك السكين ذات المقبض المرمري. طلبت من ابن العورة ذلك كي أتخلص من السكين الغالية الثمن.

ـ تفضل، إنها فاخرة، لقد خسرها ابن جاموسة في القمار. خذها بدينارين.

ـ لا.. لا، أنا أبحث عن واحدة أصغر منها، أريدها أرخص، ما لهذا الغلاء، لو كنا ذهبنا إلى سوق الهرج لحصلنا على سكاكين أرخص وأفضل.

تناول أبو خضير السكين ورفعها عاليا وهزها يمينا وشمالا

فقال حميد ابن العورة:

ـ أخي على كيفك، فأنا أبيع السكاكين لا أتبارز بها.

ـ ولم أنت خائف هكذا؟ إني أحاول تجربتها فقط.

ـ جربها في معركة حقيقية، لا تجربها معي.

ودفعا لهذا الجدال طلبت من ابن العورة أن يعرض على سكينا أصغر منها.

ـ تقصد أرخص منها... حسنا، خذ هذه، إن ثمنها ثلاثة أرباع الدينار فقط.

التقطها أبو خضير من يده ونظر إليها باستخفاف وأعادها ثانية إليه:

ـ إنها لا تذبح فأرة، ولا تساوى قرشا أحمر.. أعطنا تلك التي هناك، فهي تبدو جيدة.

ـ خذها، سكين ممتازة بدينار واحد، تفتح آليا، تضغط على هذا الزر فتنفتح لوحدها.

ـ آ.. إنها أم الياي. قال أبو خضير. وحين استفسرت منه عن معنى أم الياي، تطوع ابن العورة وشرح لي ذلك فقال:

ـ بسبب هذا الزر يسمونها أم الياي، أي ذات الزر، مثل ذات الصواري، ألم تسمع بمعركة اسمها ذات الصواري، يقولون إنها معركة قديمة ولكني لا أعرف متى حدثت.

ـ بزمان الإنجليز. قال أبو خضير وبدا واثقاً من معلوماته.

ـ وهل انتهى زمن الإنجليز، انهم لا يزالون يحكمون العالم. قال أحد الواقفين قرب الدكان.

فردَّ عليه ابن العورة بسرعة:

ـ لا أخي.. اليوم زمان الأمريكان، لقد مضى زمن الإنجليز.

ـ خوجة على، ملا على.. لا فرق، الإنجليز هم الأمريكان. علق أبو خضير بإيجاز ثم تناول النقود من جيب قميصي وناول البائع الثمن، فأخذت السكين وأنا أردد مع نفسي، إنها سكين خفيفة سهلة الحمل، سأضعها في جيب بنطلوني الخلفي.

سمعني أبو خضير فقال ضاحكا:

ـ ولكنها صغيرة ولا تخيف أحدا.

ـ وهل سأذهب بها إلى معركة العلمين؟

ـ لا... إلى معركة الأرنبين، لماذا اشتريتها إذن؟

ـ ليطمئن قلبي.

كانت تلك السكين هي الوحيدة التي اشتريتها ولم أدخل بها لا معركة العلمين ولا معركة الأرنبين كما قال أبو خضير.

اليوم أجد نفسي أعيش في مدينة كبيرة سماها الوالي المدينة العظيمة، وأحيا في حجرة صغيرة فراشها بساط من وبر، وأملك طباخا إيطاليا ومنضدة خشبية وضعت فوقها كتبي ودجاجة يتعين على طهيها، ومن أجلها اضطررت إلى البحث عن سكين من جديد ولكن دون أبو خضير هذه المرة لأنه قتل منذ سنوات في معركة لا أحد يعلم مع من دارت، فالحكومة لم تخبر أمه أين وكيف قتل رغم كونه ابنها ومعيلها الوحيد، فقد وجدوا جثته ملقاة أمام باب الدار صباح يوم مطير وطعنات السكاكين مزقتها إربا.

ذهبت إلى السوق وفتشت عن سكين جيدة فعثرت على بائع لا أعرف له اسما، وجدت لديه نوعا واحدا من السكاكين، اشتريت واحدة وعدت إلى غرفتي الموحشة والتي تستمد وحشتها من المدينة العظيمة التي أعيش فيها والتي جعلها الوالي خالية من المسارح والسينمات والمقاهي بأمر سلطاني واحد لا غير.

والشيء الوحيد الذي سمح به هو التلفزيون الذي يهذي طوال الليل والنهار بما كتبه من سخافات لأبناء البلاد كي يحسبوا أنفسهم سادة أعلون.

لم يمض أسبوع واحد على شرائي تلك السكين وإذا بي أجدها كليلة لا تنفع، فرميتها وذهبت من جديد إلى السوق بحثا عن واحدة أخرى.

بحثت في السوق ودكاكين الأزقة القريبة منه فلم أعثر على سكين أفضل منها، فعدت مدحورا إلى البائع الأول وسألته عن الحل والربط، فأجابني:

ـ كما ترى، ليس أمامك إلا أن تشترى واحدة مثلها.

ـ ولكن، ألا نصرخ صباح مساء ومنذ سنين، بأننا سنحارب؟

ـ نحارب من؟ سألني البائع باندهاش.

ـ عدونا؟

ـ ومن هو عدونا ... آه تذكرت، سامحك الله يا بني، وهل سنحارب عدونا بالسكاكين؟

ـ بماذا إذن؟

ـ بالطائرات والصواريخ والمدافع.

ـ وهل نصنع مثل هذه الأسلحة؟

ـ نشتريها.

ـ وان لم نستطع؟

فأجابني بلهجته الليبية:

ـ الله غالب.

ـ انحنيت على الأرض ورفعت حجرا...

ابتعدت بضع خطوات ورميته في الفضاء بقوة.

* * *

السيد لجن بلندن

كانت أمه حبابة مدمنة على حضور القراءات الحسينية ومجالس العزاء التي تقام في شهر محرم الحرام لإحياء ذكرى استشهاد الإمام الحسين، الإمام الذي كانت حبابة تتلفظ كنيته بكل خشوع وإجلال، بل غالبا ما كانت تكنيه بسيد الشهداء أو سيد شباب أهل الجنة.

جلس محيسن يوما إلى جانبها وكان حينذاك لا يتجاوز السادسة من العمر، رأى الدموع تنهمر على وجهها متأثرة بما يقصه السيد القارئ عن مقتل الإمام الحسين يوم العاشر من محرم، فسألها: ولكنني يا أماه، لا أستطيع البكاء مثلما تبكين.

أجابته وهي تكفكف دموعها: يا بني، إذا كنت سليم النية، نقي القلب، فأنك لا شك ستستطيع البكاء مثلي.

منذ ذلك اليوم، أو بالأحرى منذ تلك الأمسية، علم أن هناك في زاوية من قلبه، لا يعلم مكانها بالضبط، بقعة سوداء لا يعرف ماهيتها، ولا يعرف لها تفسيرا ماديا، ولكنها لابد أن تكون شيئا يحول بينه وبين ما يؤثر في الآخرين ويجعل دموعهم تسيل. سمع البعض يقول إنها نقطة سوداء، والبعض الآخر يقول إنها شائبة، وهناك من يقول إن القلب نفسه قدّ من حجر، ويستشهد بالأغنية المشهورة: قلبك صخر جلمود ما حن عليّه، وتساءل يوما، ترى لماذا هو يختلف عن قلب أمي؟ أتراه على غرار قلب أبي القاسي؟

كان واقفا أمام المرآة المهشمة المركونة في زاوية من كوخهم حين سمع والده يصيح به: صه ابن الكلب.

كلمات ثلاث لفظها أبوه بلهجته العامية حين سمعه يقول مثل قلب أبي القاسي، كلمات ثلاث لو كانت لدينا الشجاعة على نقلها حرفيا بلهجتها لكانت: أنجب ابن الجلب، صرخة مجلجلة جعلته يفر هاربا من الكوخ ولا يعود إليه إلا بعد العشاء، وقت خروج الأب إلى المقهى.

ما لهذا الأب الجلف؟ أيصرخ بهذه الصورة لأنه أضحى يمتلك عقالا وعباءة جديدة؟ ألا جزى الله الفقر ألف خير، يومها كانت أمي تستطيع فرك أنفه، أما الآن، بعد أن أصبح يمتلك شيئا من النقود من عمله شرطيا، أخذ يصرخ صباح مساء.

لقد كانت أمي محقة في ترديدها المثل المتداول بين النساء من ان الرجل إذا امتلك مائة دينار فسيقع بين خيارين، إما أن يتزوج أو أن يقتل ويدفعها فدية. لذلك كانت دائمة الترديد للمثل القائل: الله لا يترس المعلف تبن.

ها هو الآن يسير في حدائق هايدبارك بلندن ويتحسس الباوندات الإسترلينية القابعة في جيبه ويردد مع نفسه الله لا يترس المعلف تبن، انه وبهذه الباوندات يفكر في مضاجعة شقراء إنجليزية. إنهن نساء من قطن، مدامات، كما كان يسميهن جده خريبط أبو الليل عليه الرحمة.

استمر سائرا في حدائق هايدبارك حالما في الكلام مع هذه أو تلك من بنات العم أبو ناجي ـ كنية الاستعمار الإنجليزي في العراق ـ وتساءل مع نفسه : كيف يكلّم هؤلاء الإنجليز و الإنجليزيات، انهم لا يكلفون أنفسهم عناء النظر إليه وهو يتمخطر مرتديا أحدث ما أنتجته مصانعهم، آه من هؤلاء الملاعين، هم الذين سرقوا الفتاة الجميلة ابنة قريته سعدة، التي كانت تعمل خادمة في دار (الإنجليزي صاحب) لقاء أجر زهيد، اختطفها الصاحب حين رحل إلى بلاده، أخذها معه، ولم يستطع أحد من أهلها اللحاق به، رغم الخيل السريعة التي كانت لديهم.

ها هو الآن بلندن وسيريهم كيف يكون الانتقام، ان ثمن الانتقام زهيد هنا، سيدفع الباوندات التي معه أو بعضها ويحصل على إحدى بناتهم، ولكن لعن الله مرض الإيدز، من أين أتى هذا المرض اللعين؟ ألم يأت إلا مع مجيئه إلى لندن؟ ولكن مع ذلك عليه أن ينتقم، ألم يقل عمر الخيام: واغنم من الحاضر لذاته فليس في طبع الليالي الأمان...

ما هذا؟ لم لا يفكر في شيء أكثر فائدة؟ أليس الأجدر به أن يفكر في تعلم لغة القوم، ما له ولسعدة؟ هل جاء إلى لندن كي يغتصب بنات قصر بكنغهام ليتهم بالإرهاب ومن ثم يسلم إلى دولة عربية ليحاكم ويعدم؟ انه جاء ليعيش ويعمل ويتاجر، ألم يفكر بالتجارة؟ ليتاجر مع الإنجليز و أبناء الأمة العربية، فللإنجليز مصانعهم ومشروباتهم، ولدى أبناء جلدته الدنانير والأموال والعقول سهلة الاغتصاب، ولا ينقصه شيء لكي يتمكن من ذلك إلا تعلم اللغة الإنجليزية، فسيصبح بواسطتها عفريتاً تجاه هؤلاء الأعراب الجهلة، عليه أن ينسى سعدة، وأن ينسى شقراوات لندن، عليه أن يتعلم لغتهم أولا، فبدونها لا يستطيع تحقيق شيء من أحلامه، ولا حتى العيش، فبوساطة اللغة سيستطيع التفاهم مع الإنجليز والمتاجرة مع العرب، وعلى الخصوص أبناء الخليج، فهم سيكونون لقمة سائغة لمن يعرف من أين تؤكل الكتف، انهم يشترون كل شيء، ليتعلم الإنجليزية ويصبح امبراطورا ... ألم يبدأ الخاشقجي وغيره هكذا ؟ ألم يكن إعرابيا لا يجيد سوى ركوب الإبل ؟ ليستقر بلندن ويتجول في أحيائها وأزقتها وليجلس في حاناتها ومواخيرها وليتعلم اللغة حتى من بغاياها، وليدفع لهن لقاء تحدثهن معه، فان من تعلم لغة قوم أمن شرهم ـ همس في سره ـ ونكح نساءهم إذا كانوا إنجليزا.

سيتجول في حي سوهو فعسى أن يتعلم بعض الكلمات.

هلو... باى باى... باستر ...

لم يتقن حتى الآن أكثر من هذه الكلمات، إضافة إلى ما تعلمه في المدرسة أيام زمان، مثل صباح الخير ومساء الخير.. وتساءل يوما دون أن يجهر بسؤاله: ترى لماذا لا يكلمونني.. فأنا أريد تعلم لغتهم.. وعلى استعداد لأن أكلم أيا منهم..

أيها الناس أريد أن أتعلم لغتكم.. أريد أن أتحدث إليكم.. فأنا أعرف شيئا من لغتكم، أتعلمون؟

أستطيع أن أقول لكم صباح الخير إذا كان الوقت صباحا، ومساء الخير إذا كان الوقت مساء..

أريد أن أحدثكم، ألا تسمعونني ...

الكل صامت...لا أحد يجيب... لا أحد يتحدث ا ليه..

صمت... صمت. أولاد الـ .....

* * *

سجائر تركية

استلمت الشرطة أوامر إطلاق الرصاص في الهواء لتفريق المتظاهرين.

ـ كيف عرفت ذلك

ـ تحدث بذلك أحد رجال الشرطة مع والدي حين كان يشرب الشاي في المقهى، وقد يكون أخبره بذلك كي يتسرب الخبر إلى لجنة الإضراب.

ـ إذن لابد من الإسراع وإخبار لجنة الإضراب بذلك.

جرى هذا الحديث في مقهى أبو عادل المنزوي في زقاق صغير من أزقة شارع الوثبة المتفرع من شارع الرشيد.

ـ هل تعلم سبب عدم استقامة شارع الرشيد وتعرجه بهذا الشكل؟ سأل عادل زميله الذي يدرس معه في الثانوية الجعفرية المقابلة للزقاق

أظن أن السبب عدم وجود آلات هندسية!

ـ لا... إن وسائل القياس كانت متوفرة، ألا ترى إلى المنائر كيف هي مستقيمة، إن السبب في ذلك يعود للرشوة، يوم ذاك كان خليل باشا والي بغداد وقد أمر بشق الشارع، فكانوا يمدون حبلا فوق البيوت لتحديد الشارع، ويهدمون البيوت التي تقع تحت مسار الحبل.

أخذ الأغنياء يقدمون الرشاوى كي يبعدوا الحبل عن بيوتهم، فكان الحبل يتعرج ويغير مساره حسب الرشوة ملاحقا بيوت الفقراء ومبتعدا عن بيوت الأغنياء.

وهنا لم يستطع أبو زكي الذي يرشف الشاي بهدوء الامتناع عن التعليق، فقال:

ـ وهل انتهت الرشاوى الآن؟ ثم سعل عدة مرات، فنهره صاحب المقهى أبو عادل لعدم تركه التدخين رغم نصيحة الطبيب له بذلك، فرد عليه بصوت محشرج:

ـ دعني أبو عادل أدخن سجائر تركية وأحرقها لانتقم من العثمانيين الذين أحرقونا بظلمهم. وردد بعد أن سعل مرارا لازمته الشهيرة، ما طول قهوة و تتن، كل الأمور تهون.

على مبعدة من هذا المقهى الصغير يقوم معمل سجائر تركية التي يدخنها أبو زكي منذ سنوات لم يعد يذكر بدايتها.

ونعود للزقاق الذي يقع فيه المقهى فننظر إليه مليا لنرى البيوت التي تآكلت والتي يتكئ بعضها على بعض خوف الانهيار، ورغم كونها بيوتا واسعة إلا أنها مزدحمة بالنزلاء من نساء وأطفال لا تعرف من منهم يعود لمن، والكثير من هؤلاء النزلاء جاءوا من مدن وقرى تحيط بمدينة الموصل، لذلك تجد بعض النسوة منشغلات بإعداد كبة البرغل التي يبعنها للمطاعم، أو بإعداد الباسطرمة التي اشتهروا بها، وبإمكانك مشاهدة النساء اللواتي يشتغلن داخل البيوت لان أبوابها الكبيرة لا تغلق بسبب كثرة الداخلين والخارجين منها.

بين تلك الأزقة التي تنساب وسطها مياه المجاري القذرة، تنفتح بوابة كبيرة على فناء يعبق برائحة التبغ التي أحالت وجوه العاملين في المعمل إلى جلود صفراء مشدودة على جماجم من عظام خالية من اللحم. وفي الفناء والقاعات القليلة في الطابق العلوي ينحشر العمال الذين ينتجون سجائر تركية والتي تباع علبتها بأربعة وثلاثين فلسا، ثم رفعت مؤخرا أسعارها فأخذت تباع بأربعين فلسا بسبب تغليف العلبة بالسلوفان.

ـ لماذا تضربون عن العمل مادامت أجوركم تدفع بانتظام؟ سأل أبو عادل أحد العمال.

ـ أجورنا تافهة قياسا إلى مستوى الأسعار، ونحن نعمل بنظام القطعة، نكد ونكدح النهار كله ونبذل أقصى ما نقدر عليه من جهود ثم لا نحصل على أكثر من نصف دينار، أية أسرة تستطيع العيش بنصف دينار يا أبا عادل، الله يخليك.

كان السند الحقيقي لإضراب عمال السجائر، طلاب الثانوية الجعفرية التي لا تبعد سوى بضعة أمتار عن المعمل، وذلك لان طلبتها يمتلكون وعياً سياسياً جيداً، فأغلبهم يعملون في النهار ويدرسون مساء، وقد كانت ثانوية الجعفرية وثانوية الأكراد الفيلية بباب الشيخ من المراكز السياسية الهامة ببغداد، لذلك حرصت الحكومات فيما بعد على إغلاق هاتين الثانويتين.

حدث ذلك، حسبما يتذكر أبو زكي، عام 1961، حين أعلن العمال إضرابهم ومن ثم قرروا الاعتصام في المعمل. كانت اللافتة البيضاء التي تعلن الإضراب معلقة على بوابة المعمل المغلقة، فوجد أبو عادل مقهاه جزء من ذلك الإضراب وأحداثه.

ـ جاءت سيارة إطفاء الحريق لتفرق جموع المتظاهرين. قال أبو زكي وهو يشرب شاياً ثانيا في المقهى.

ـ هات أربع شايات، صاح أحد الذين وجدوا فسحة من الوقت للعب الدومينو. فغمز أبو زكي وأشار إلى صاحب المقهى إشارة يعني بها ان اللاعب وجماعته من رجال الشرطة السرية.

حين اقتربت سيارة الإطفاء من المتظاهرين لترش عليهم المياه بغية تفريقهم، قفز بعض الشباب فوقها واستولوا على خرطوم المياه وأخذوا يرشون المياه على رجال الشرطة هنا وهناك، ضج الناس بالضحك وتعالت صيحات الاستهزاء والتعليقات الساخرة.

مساء اليوم التالي وصلت القوات العسكرية...الجيش طوق المنطقة بعد فشل الشرطة في السيطرة على الموقف، ولم ينجحوا في حمل الناس على التفرق وإنهاء إضرابهم وإيقاف المظاهرات والهتافات.

بدأت الدبابات والسيارات المصفحة تسد منافذ الطرقات وتحاصر الناس بين شارع الرشيد وشارع الجمهورية، في شارع لا يتجاوز طوله أكثر من كيلومترين، شارع الوثبة.

لم يستطع أبو عادل النهوض مبكرا هذا الصباح كعادته، لقد نهض متأخرا بعض الوقت. وحين تربع جالسا على البساط، وضعت أم عادل الشاي أمامه وسألته باستغراب:

ـ ما بالك تأخرت اليوم عن العمل، أمريض أنت؟

تناول سيجارة وأشعلها وقال لها بصوت واضح: سوف لا أذهب إلى المقهى اليوم.

ـ لماذا؟ ما الذي يمنعك؟

ـ أصبحت المظاهرات خطيرة، وقد احتل الجيش المنطقة، إن الأمور تأخذ الآن منحى خطيرا.

ـ ولكن عادل ذهب للاشتراك في المظاهرات.

ـ لم سمحت له بالذهاب؟ ألا تدركين خطورة الوضع؟ إنكم لا تفكرون في المتاعب التي تواجهنا والمشاكل التي سنتعرض لها مع الحكومة.

ـ أنى لي أن أعلم، أنت نفسك تعرف انه يشترك في المظاهرات كل يوم، لماذا لم تمنعه؟

ـ إن الأمر مختلف اليوم، فالجيش يطوق المنطقة، سأذهب للبحث عنه.

حين وصل أبو عادل إلى شارع الوثبة، وجد الشارع محاطاً بالقوات العسكرية التي سدت جميع المداخل بالدبابات والسيارات المصفحة...جيش وشرطة طوقوا الجموع الغفيرة، منعوهم من الخروج من الطوق المضروب حولهم.

لابد أنهم يبيتون أمراً، قال أبو عادل مع نفسه، ثم حاول اختراق صف من الجنود والدخول إلى الشارع، إلا انهم دفعوه بقوة فسقط على الأرض وصاح به عريف عسكري أكلت وجهه بثرة كبيرة :

ـ الدخول ممنوع، ابتعد من هنا بسرعة وإلا...

ـ أنا صاحب مقهى في الزقاق وقد جئت لأخذ بعض الأشياء من مقهاي، أرجوكم اسمحوا لي بالدخول وسأعود بسرعة، أعدكم سوف لا أبقى أكثر من دقائق قليلة، والله العظيم... أرجوكم...

ـ قلت لك اذهب من هنا ولا تختلق الحجج، اذهب...

دار حول الصفوف عدة مرات علّه يجد منفذا يلج منه إلى الشارع المحاصر، نادى على أحد الشباب وسأله من خلف ظهر شرطي يرتدى بدلة كالحة:

ـ هل أنت من طلبة الثانوية الجعفرية؟

ـ لا..

ـ هل أنت من عمال السجائر؟

ـ لا..

ـ هل تعرف ابني عادل ؟

ـ لا...

إذن لماذا أنت هناك.. غمغم مع نفسه وانتظر خلف الجنود وراح يحدق في وجوه الشباب الممتلئة عنفوانا وتصميما على مواجهة الدبابات وقوى الجيش والشرطة.

أين ابنه عادل الآن، هل هو في المقهى؟ هل عاد إلى البيت؟ أم انه ما زال بين تلك الجموع؟

إنه هناك، حمدا لله، ها هو يقترب، سأنادى عليه:

ـ عادل.. ابني عادل، تعال هنا، اقترب مني، أريد أن أكلمك... ضاع صوته الذي بدا ضعيفا أدراج الرياح، ولم يستجب لندائه أحد. ثم حل المساء ولم يشعر بالتعب بعد، ومازال يبحث عن ابنه عادل، ترى أين اختفى؟ ليته يستطيع اختراق هذه الصفوف المسلحة...ظل طوال النهار يدور خلف الشرطة والجنود كطير مهيض الجناح، سأل البعض عنه ولكنهم لم يسعفوه بشيء، نصحه أحدهم بالابتعاد عن المنطقة لان الوضع متوتر، وأشار عليه آخر أن يجرب الدخول إلى الشارع عبر الأزقة العديدة من جهة

منطقة الشورجة، فقد يستطيع التسلل إلى شارع الوثبة من هناك لان بعضها غير محروس حراسة مشددة.

لا يتذكر الآن هل كان يومها الطقس حارا أم باردا، كل الذي يتذكره ان الشارع كان يعج بآلاف الناس الذين منعتهم القوات العسكرية من مغادرة الشارع. وكان عفتالو بائع الرقي والبطيخ يوزع ما عنده مجاناً على الناس، بينما كان البعض يقدم الخبز والكبة، وآخرون أخرجوا معدات الشاي وراحوا يوزعون الشاي والقهوة على الناس.

هل هو إعراب عن مساندة الإضراب، أم هي تقاليد اعتادها هؤلاء الناس؟

ليلة حافلة بالنقاش والأناشيد، لم يدغدغ النوم فيها الجفون إلا لماما، وفي الصباح التالي بدأت الأناشيد تتعالى، ترددت أنشودة مازال يتذكرها تحث الجنود على الوقوف إلى جانب الناس، فكان ينشد معهم :

إنما الجندي أخونا يا شباب..

الجنود ينظرون بدهشة لأولئك الشباب الذين يصرون على الإنشاد رغم كل تلك المتاعب، نظرات متعاطفة من الجنود نحو الجموع المحتشدة، اضطرت السلطات إلى إصدار الأوامر المشددة للجنود بعدم التحدث إلى المتظاهرين بغية خلق حاجز نفسي بين الجنود والمتظاهرين.

تقدمت الجموع نحو الدبابات العسكرية بصفوف متراصة تحاول فك الحصار، وتعالت الأناشيد مرة أخرى:

إنما الجندي أخونا...

يتقدم الشباب بعزم كي يفتحوا كوة في الجدار الذي تضربه القوات العسكرية.. وتنطلق رصاصات حاقدة من أعلى سطح بناية تطل على الشارع كان قد صعد إليها بضعة رجال من أفراد الشرطة السرية.

سقط أحد الشباب مضرجاً بدمائه، ثم سقط آخرون، رفع البعض زميلهم الشهيد فوق رؤوسهم وهم يهتفون بخلوده.. ازداد سيل الرصاص ودوى البنادق الرشاشة فاضطر الكثيرون إلى الانسحاب إلى الأزقة الفرعية.

تساقط الجرحى على الأرصفة ووسط الشارع، فحملتهم الشرطة فيما بعد إلى الناقلات العسكرية.. ازدادت المواجهة شدة وازداد لهيب الاطلاقات النارية وبدأت الملاحقات تزداد ضراوة، وتبع الجلاوزةُ الناسَ وألقوا القبض عليهم، وأخذوا يطلقون الرصاص على كل من يقاوم.

فتحت البيوت أبوابها، فالتجأ إليها العديد من الشباب، ولكن كم تستوعب هذه البيوت؟

اضطر كل بيت إلي إيواء عدد كبير من الناس قد يزيد عن العشرين شخصا.

وعند حلول المساء هدأت الملاحقات، وكانت الشرطة قد أخلت الجرحى واعتقلت اغلب الذين قاوموا. اضطر الكثيرون إلى قضاء ليلة قلقة في بيوت الناس الذين فتحوا أبوابهم. واستطاع البعض الهرب عبر سطوح الدور التي تقع على مقربة من شارع الجمهورية، فالدوريات والحراسة مازالت مشددة على مداخل ومخارج شارع الوثبة. وفي الصباح سمحوا للنساء فقط بالذهاب إلى سوق الدهانة القريب لشراء الخبز والفطور، بعد ذلك أخذوا يفتشون البيوت بيتا بيتاً، اقتادوا أعدادا غفيرة من الرجال خارج البيوت بينما استطاعت بعض الفتيات الادعاء بأنهن من أهل الدار، وقد ساعد على ذلك قلة عدد النساء المشاركات في المظاهرة.

صفوا الرجال إلى الجدران في الأزقة كالأسرى، أيديهم فوق رؤوسهم، ثم بدأ الجنود تفتيش جيوبهم بحثا عن المنشورات المؤيدة للإضراب والآلات الجارحة، وراحوا يكيلون لهم السباب والشتائم: كلب ... حقير.. ملحد...كافر.. زنديق مجرم.. إلى آخر العبارات التي شاع إطلاقها، فالكفر والزندقة والإلحاد تهم مجربة منذ القدم.

كان أبو عادل من بين الذين حملتهم السيارات العسكرية إلى معسكرات الاعتقال.

بعد ذلك بأيام قليلة عادت سجائر تركية إلى الخروج من بوابة المعمل الكبيرة، كما عادت الثانوية الجعفرية تستقبل الطلاب.

اليوم أطلقوا سراح أبو عادل فعاد إلى داره الواقعة في القشله قرب سوق الصدرية، استقبله معارفه في الزقاق بوجوه واجمة حزينة:

ـ أين كنت طوال هذه المدة؟

ـ أين اختفيت كل هذه الأيام؟

ـ لماذا أنت...

شاهد عددا من أقاربه ومعارفه يزدحم بهم الدار، والنواح يتعالى...

ـ البقاء في حياتك أبو عادل، قال له حسين الحداد وهو يعانقه باكيا...

لقد استشهد عادل في شارع الوثبة.

* * *

سجن الكوت

لا يملك المرء أحيانا إلا أن يستعيد ذكرى بعض من يعرفهم، والعجيب في الذكريات أنها تزداد ازدحاما في رأسي كلما اتسعت المسافات بيني وبين تلك المدينة الصغيرة التي سقط رأسي فوق بساطها ذات صيف. ولطالما سألت نفسي بصوت عال عن سبب ذلك، فتهتز طبلة أذني لصفير يهمس فيها مرددا وشوشة لا أتبين كلماتها، وأردد قائلا إن الأحداث المتشابهة تلد تلك الذكريات لان ما يجرى اليوم شبيه بما كان يجرى بالأمس، في تلك السنوات التي كنا ننام فيها وحكايات الطنطل و السعلاة تنام معنا على وسادة واحدة، أيام كان الآباء ينظرون إلينا بإشفاق خوفا على مصائرنا التي لم تكن تنفع معها تمائم السيد علي، الرجل الوحيد في سوق مدينتنا الذي يستطيع درء كل الأمراض والأخطار بواسطة كتابة بعض الآيات بحبر الزعفران، ورسم أشكال غريبة على ورقة مثلثة، فتغلفها الأم بقطعة من قماش وتعلقها على أكتافنا، ومع ذلك استطاعت العجوز المعصوبة الرأس أن تقول أمام حشد من النساء :

الله لا يعطيه للسيد علي ويكسر رقبته، لان حرزه لا ينفع أبداً.

إن ابنها الوحيد لم يتماثل للشفاء من الرمد الذي أتلف عينيه.

كان الخال هو الشخص الوحيد الذي يستطيع تمزيق تلك التمائم وإلقائها في نار المنقلة المتوهجة ويقول عنها إنها ترهات لا تنفع ولا تضر، فتلطم الأم خدها المنير تحت وهج الفانوس وتسرع إلى نثر حفنة من البخور على النار ليتصاعد دخان أبيض عطري، فتتمتم:

ما شاء الله ... الله و أكبر، يا دافع البلاء يا الله. وتضيف ملتفتة إلى الخال: ويلي عليك من غضب الملائكة الصالحين يا زنديق...

وبعد شرب القليل من الشاي ولفافتين من التبغ تنهال شتائم الخال على الحكومة، ثم يسرد لنا أخبار التظاهرات وإضراب السجناء، فتقفز الجدة لتحمل سطل الماء وتهرع صاعدة إلى سطح الدار لترمي ماءه في الزقاق وتتطلع باحثة عن خلف السري، رجل الحكومة الذي يتلصص وينصت من وراء الجدران الطينية ليسمع ما يدور خلفها، ثم لا تلبث عائدة محذرة مدمدمة:

خلف هذا الحية المسمومة ابن الـ ...

رغم كل تلك الذكريات تبقى الذاكرة العجفاء تتساءل: ترى كم كان يبعد السجن عن دار الجد العتيدة؟ ذلك السجن الذي كان الخال يسميه فندق الفقراء، والذي عرف بنزلائه

الأشداء الذين تحدوا الحكومة وأعلنوا إضرابهم الشهير، السجن الذي حل فيه ذلك الرجل الذي صعد المشنقة لأنه كان يريد إسقاط الحكومة يوم كان الكثير من الناس لا يستطيعون فك رموز رسالة يأتيهم بها حميد البوسطجي...

واه.. أيتها الجدران، كم كان سهلاً اقتحامك وإطلاق سراحه ومن معه من السجناء، ولكن آخ وألف آخ... ماكو قيادة.

ثم حل ذلك المساء الذي لا يستطيع الرجل نسيانه والذي يطل بين آونة وأخرى يرتسم واضحا بشدة أمامه فينظر إلى السماء ليتذكر تلك السنوات حين كان ينظر إلى الأفق بحثا عن هلال العيد الذي اختفى في السماء وعصى على الرؤية. سماء أرجوانية زادها غبار الصيف احمرارا، يالها من سماء أخاذة...حمرة قانية وصفرة شاحبة:

ـ لم تبدو السماء هكذا يا جدتي؟ ألا يستطيع الله أن يجعلها أكثر صفاء كي نرى هلاله ونحتفل بالعيد غدا؟

أتاني صوتها الواهن والذي لا يخلو من رنين حاد:

ـ إنها حمراء بابني لأنهم قتلوا الأبرياء في ذلك السجن الكبير وتلك هي دماؤهم تنتشر في السماء وتصبغها بهذا اللون الأحمر.

لم أستطع فهم ما تقول، وبقيت أحدق في السماء بحثا عن هلال العيد كي أرتدي الدشداشة الجديدة التي أتتني بها خالتي، ولكن لغز الدماء ظل يحيرني.. إذ كيف تنتشر في السماء وأية سيارة رش تستطيع رفعها ورشها في هذا الأفق المترامي الذي يخفي هلال العيد؟

اليوم وأنا أستعيد تلك الأحداث وأرقب الأفق الأرجواني أرى الأيام تعيد نفسها وأذكر آخر ما دار بيني وبين خالي من حوار:

ـ لماذا قتلوا السجناء؟

ـ لأنهم يريدون إسقاط الحكومة.

ـ وهل يستطيعون؟!

* * *

حكايات لبغداد

نهضت اليوم مبكرا رغم عدم ارتباطي بعمل يحتم عليّ ذلك، وشجعني على الخروج إلى الشارع، صفاء السماء وزرقتها المنبسطة على مدينة تيزى اوزو النائمة بين أحضان جبال قبائل الأمازيغ. قررت تناول آخر فنجان قهوة لي بمقهى فندق عمراوة، الفندق الفخم الرابض على سفح جبل البلوى حيث بإمكانك رؤية المدينة كلها.. أردت أن ألقي عليها نظرة وداع أخيرة قبل أن أغادرها.

بادرني محمد الذي كان يحتسي البيرة بسؤال فاجأني:

ـ كيف ستسافر وجواز سفرك لفظ أنفاسه منذ سنتين؟

ـ سأجد طريقة أحييه فيها.

فعلق وهو يبتسم قائلا: يحيي العظام وهي رميم.

أما حين أخبرت زميلتي عن عزمي على قضاء الأيام الأخيرة قبل رحيلي من الجزائر في أحد فنادق برج الكيفان، فقد تطلعت إلى وقالت:

ـ أليس من الأفضل أن تقضيها في أحد فنادق العاصمة؟

ـ لا أعتقد ذلك. لأنها مزدحمة جدا، ثم أني حفظت معالم العاصمة عن ظهر قلب.

ـ ولكن لماذا برج الكيفان؟ عادت وسألتني بفضول دفعني إلى تقديم جواب مطول:

ـ لأنها منطقة سياحية هادئة، تقع على ساحل البحر، كما أنها قريبة من المطار مما يسهل علينا اللحاق بالطائرة، وقد اتفقنا، نحن مجموعة من الأصدقاء الذين سنغادر معا على الإقامة والتجمع هناك قبل رحيلنا.

وصلت برج الكيفان بعد الظهر، سألت عن الفندق فوصلته عصرا، وحين دخلت بهو الفندق شاهدت باسل في صالة الاستقبال، فهش للقائي وقدمني إلى موظف الاستعلامات، ثم جلسنا فأشعل سيجارة وطلب لي فنجانا من القهوة، وقال قبل أن أساله: لقد ذهب جواد مع عقيل إلى شاطئ البحر، وهما على وشك العودة.

ـ حسنا، سأصعد إلى غرفتي وسنلتقي بعد عودتهما.

تطل الغرفة التي صعدت إليها على ساحل برج الكيفان الذي افترشه الناس، وظهر البحر ممتدا نحو أفق ساحر بعيد جعل الحنين إلى السفر يشتد عندي. وقبل أن يختفي قرص الشمس في مياه البحر الزرقاء كنا قد تحلقنا حول مائدة تناثرت فوقها بضع قناني

من الشراب وعدة صحون من سمك الروبيان.. ثم تنوعت الأحاديث وتشابكت، وما أن صمت عقيل ومد يده ليرفع كأسه حتى بادره باسل قائلا:

ـ أعتقد أن الأيام القليلة التي سنقضيها في هذا الفندق ستكون أجمل لو استطعنا تمضية لياليا بلعبة تلهينا.

ـ نعم.. نعم، أكيد عندك اقتراح مشاغب... أتحفنا بما تخطط له يا ملعون.

علق جواد بسرعة معقبا على اقتراح باسل، فأضفت مداعباً:

ـ هل تريد منا أن نلعب بوكر أم محيبس؟

ـ لا.. لا، هذه المرة اقتراحي جاد وهادف كاقتراح عقيل علي بالزواج من مديرة المدرسة الثانوية لأنها غنية.

ـ يبدو عدم نفع أي اقتراح معك، لا زواج ولا طلاق، هات ما عندك. قال عقيل ذلك وهو يلتهم سمكة روبيان مع قشورها، فخطرت بذهني فكرة طارئة:

ـ على ذكر الزواج، سمعت أن صديقنا رياض عاد إلى الوطن قبل سنتين من أجل الزواج، ربما تزوج الآن ولكني لا أعرف أخباره.

ـ يتزوج رياض!!؟ لا.. لا أصدق. صاح عقيل. وأضاف: إن قصة زواج رياض قصة طويلة، لا تنتهي. فسارع باسل يقول:

ـ إذن حضر الماء وبطل التيمم، لا يوجد أحسن من هذا الموضوع، أقترح أن تحدثنا ـ وأشار إليّ ـ عن رياض وحكايات زواجه التي تعرفها. فأيده جواد وأضاف:

ـ الآن أستطيع تأييد اقتراح باسل بلا تحفظ، وما دمت أنت مصدر حكايات زواج رياض فعليك أن تقص لنا القصة كاملة.

حاولت التملص من الأمر ولكن عيونهم تطلعت إلى باستفزاز، فحولت وجهي يمينا وشمالا فلم أجد بدا من الإذعان والقول: حسنا، سأروى لكم كل ما أعرف هذه الليلة، وعلى كل من يعرف عنه شيئا، عليه أن يرويه لنا في الليالي القادمة، ما دمنا في هذا الفندق وحتى نسافر.

وافق الجميع على هذا الاقتراح، فكانت هذه الحكايات التي جمعتها ولكني نسيت تواريخ أحداثها.

* * *

الحكاية الأولى: العراق

اعتاد رياض الجلوس مساء كل يوم بمقهى أبو حلومي ببغداد وتدخين سيجارة ماركة الجمهورية وشرب الشاي رشفة إثر أخرى، إلا أنه استبدل سيجارته منذ أسبوعين بسيجارة أخرى ذات فلتر، فكان هذا الأمر مشجعا لزملائه كي يتهموه بمحاولة الظهور بمظهر عصري، ودعم ذلك صديقه سرحان بقصة مفادها أن رياض كان يدأب منذ صباه على تقليد أبطال السينما الغربية، فقد كان يعيش بمدينة صغيرة تدعى قلعة سكر، حيث ولد هناك، وكان أن ذهب يوما إلى الحلاق وطلب منه أن يحلق له شعر رأسه سبورت، وكانت تلك التسمية قد شاعت حديثا بسبب الأفلام السينمائية. ولما كان الحلاق لا يعرف ما تعنيه تلك التسمية، لذا اضطر رياض أن يعرض أمامه صورة اقتطعها من إحدى المجلات للمثل جيمس دين كي يقص شعره على غرار شعره. فما كان من الحلاق إلا أن يأخذ الصورة ويمزقها ويشتم رياض، لأنه ظن أن الصورة لفتاة متبرجة، ثم شد رياض من شعره وقال له بالحرف الواحد:

- والله، لو عدت إلى مثل هذه الترهات لأحلقن شعرك من جذوره نمرة صفر.

كان ذلك منذ سنوات بعيدة، أما الآن فهو يعرف أنه من مدمني شاي أبو حلومي، ولكنه لا يعرف لم اعتاد المرور صباح كل يوم على دكان الحاج زبالة الواقع في الحيدرخانة ليشرب كأسا من عصير الزبيب الأسود ويأكل سندويش الجبن الأبيض الذي يبيعه الحاج زبالة بسعر زهيد.

كان يتجشأ ثلاث مرات بعد إكماله الساندويش ويتلمظ بالرشفة الأخيرة من الشربت بتلذذ كبير.

ولم يكن زميله سرحان يترك ذلك يمر دون تعليق، فكان يقول إن ذلك من تناقضات بغداد، فاقتران عصير العنب مع الزبالة جمع بين نقيضين، تماما مثل السياسة في العراق، أما استعمار وملك أو جمهورية ودكتاتور.

كان إفطار الحاج زبالة يبعث فيه نشاطا عجيبا، كل صباح شربت الحاج وكل مساء شاي أبو حلومي وسيجارة بغداد.

يمتاز مقهى أبو حلومي بميزات لا تقل عن المذاق الخاص لشايه، فان موقع المقهى يتوسط بغداد، وهو قريب من باب المعظم والكليات والمعاهد ووزارة الدفاع، كما أن الحكايات الطريفة التي يقصها أبو حلومي لجلسائه وزبائن المقهى، جعلت له شهرة وميزة يتميز بها عن بقية المقاهي.

أبو حلومي المتجلبب بعباءة فضفاضة، يجلس خلف منضدة صغيرة فوقها صينية نحاسية رص فوقها بعض النقود المعدنية ويتكئ على أريكة خشبية (تخت)، حوله بعض رواد المقهى يحدثهم ويقص عليهم حكاياته، تماما مثل مجلس راوية من رواة حكايات ألف ليلة وليلة.

كان أبو حلومي يستأثر بانتباه جلسائه من خلال حكاياته المبالغ فيها والتي تتجاوز حدود الصدق والكذب مثلما تتجاوز الطائرات حدود بلداننا لترمي قذائفها على رؤوسنا، فيتشدق حكامنا بعد ذلك بالبطولة والنصر المؤزر، ويتربعون على عروشهم ويعمّرون فيها عمر نوح.

قال أبو حلومي يوما: إن الباشا ـ يقصد رئيس الوزراء نوري السعيد ـ جاء مرة إلى بيته في ساعة متأخرة من الليل يطلب قنينة عرق مستكي، لأن ضيوفه الإنجليز أصروا على طلب العرق رغم وجود أنواع المشروبات الإفرنجية لديه...

وراح أبو حلومي، يقص حكاية مغامرته في البحث عن العرق المستكي، لأنه لم يكن يحتفظ هو أيضا بشيء منه، فاضطر إلى أن يقتحم مخزنا مغلقا ليأخذ منه صندوق عرق. وحين تنبه العسس، حاصروه وطوقوه، فحدثت معركة مشهودة بينه وبينهم، واشتعلت الاطلاقات النارية، التي اشتركت فيها الشرطة أيضا، ولكن أبو حلومي انتصر عليهم، وأردى بعضهم قتلى، ثم أخذ صندوق العرق وذهب به إلى بيت الباشا نوري السعيد، الذي كان بانتظاره على أحر من الجمر.

كان رياض حريصاً على حضور مجلس أبو حلومي، كما كان دائم الترديد لحكايته التي رواها قبل ليلة عيد الفطر. فقد روى حكاية خروجه إلى الصيد وقال: كنا ثلاثة أشخاص نسير في غابة، فشاهدنا قطيعا من الغزلان، فطاردناها وذهب كل واحد منا إثر غزال من القطيع الذي تشتت، وطاردت أنا غزالا حتى تمكنت من صيده، فذبحته وعدت به حاملا إياه على ظهري، واضعا فخذا على كتفي الأيمن وفخذا على كتفي الأيسر... (هنا دخل أحد رواد المقهى) وسلم على الحضور، وجلس معهم، فانقطع حبل الحكاية، الحكاية التي كان يرويها أبو حلومي. أخذ الحاضرون يحيون القادم الجديد بالتحية المعهودة: الله بالخير.. ورد هو عليهم، ثم طلب شايا من النادل...

ولما كان الجميع في شوق إلى سماع تكملة الحكاية، طلب أحد الجالسين من (أبو حلومي) أن يكمل حكايته من حيث انتهى.

استفسر منهم لأنه نسي الحكاية وموضوعها : أين انتهيت ؟

فأجابه أحدهم وهو يشير إلى كتفيه: وضعت فخذا على كتفك الأيمن، وفخذا آخر على كتفك الأيسر.

ظن أبو حلومي أنه كان يقص عليهم حكاية فاضحة، فضرب على ذقنه وهز رأسه وقال مختتما الحكاية: ... وأكملت الليل نكاحا حتى الصباح.

ضج الحاضرون ضحكا للمأزق الذي وقع فيه أبو حلومي مع الغزال، أما هو فحسبهم يضحكون لطرافة الحكاية. ثم أصبحت عبارته تلك (حتى الصباح) لازمة يتندرون بها، وكان رياض يختتم بها أحاديثه، بل كان أحيانا يبادر أصدقاءه بها حين يلقاهم بدلا من التحية والسلام.

مساء أحد الأيام الدافئة كان رياض في طريقه إلى مقهى أبو حلومي، فالتقى فتاة جميلة. توقف أمامها، نظر إليها بدهشة، فتوقفت شهرزاد محاصرة بإحراج شديد، واستطاع هو التخلص من الموقف حين تدحرجت الكلمات من أنفه الطويل، والذي أسمته شهرزاد فيما بعد سيرانو دى برجراك .

ـ مساء الخير.. ألست فاطمة؟

ـ قديمة.

واحتار كيف يكمل حديثه، فأخرج منديله ومسح جبهته، ثم أخرج علبة سجائره وأعادها إلى جيبه، فتداركت شهرزاد الموقف، وقالت بصوت رخيم:

ـ اسمح لي أن أخبرك بان اسمي شهرزاد وليس فاطمة، وأنا اسكن القسم الداخلي المقابل، فهل تسمح لي بالمرور يا حضرة التمثال الواقف في طريقي !

همهم يقول لها:

ـ تشرفنا.. عفوا.. أنا رياض.. طالب في السنة الأخيرة بكلية القانون.

ضحكت شهرزاد فبانت أسنانها اللؤلؤية، وأرادت المضي في طريقها، فاستوقفها وقال لها:

ـ سأنتظرك قرب الباب غدا الساعة الرابعة.. أريد أن أتحدث إليك.

منذ ذلك اللقاء اعتاد رياض الانتظار قرب القسم الداخلي عصر كل يوم كي يلتقي شهرزاد قبل ذهابه إلى المقهى، فأصبح مدمنا على شربت الحاج زبالة وشاي أبو حلومي وانتظار شهرزاد.

وبسرعة لم يتوقعها أصبحت علاقته وطيدة معها، وبعد عام أو نحو ذلك قرر رياض الزواج بها، فعلق سرحان على ذلك بسرعة قائلا إنه القرار الوحيد الذي اتخذه رياض وهو يعلم أنه غير قابل للتحقيق تماما مثل قرارات الحكومة.

كلف رياض أخته سامية بالسعي في موضوع الزواج لدى أسرة شهرزاد وزيارتهم، فهي تعرف عنه كل شيء، وبإمكانها أن تقدم صورة حسنة عنه.

وحين طلبوا يد شهرزاد من أهلها، طلب والدها التريث حتى يتخذ قراره بعد أن يتعرف على رياض عن كثب. ومنذ ذلك اليوم دأب الأب في السؤال عن رياض واستقى بعض المعلومات من طلبة كليته، وكانوا لسوء الحظ من جماعة الحكومة والتي كانت تبغض رياض، فاتهموه بالإلحاد وشرب البيرة، فقرر والد شهرزاد الملتزم بصيامه وصلاته عدم الموافقة على الزواج.

ـ هل تتفقين مع والدك في قراره هذا؟ سأل رياض شهرزاد بأسى.

ـ كم مرة أؤكد لك بأني غير مقتنعة بهذا الرفض وسأحاول جهدي أن أقنع أمي كي تساعدنا على تغيير موقف أبي.

ـ وهل ستنجح أمك في مسعاها؟

ـ لم أنت متشائم هكذا؟

استمرت علاقة رياض وشهرزاد وأعادوا الكرة والمحاولة لإقناع الأب وثنيه عن موقفه الرافض، إلا أن المحاولة باءت بالفشل ثانية.

وكما كان متوقعا اضطربت أحوال البلاد السياسية وشددت الشرطة السرية الخناق على الناس وازداد الإرهاب وشاع اختفاء الناس واختطافهم من الشوارع، ولم يسلم رياض من موجة الاعتقالات تلك فأمضى بضعة شهور معتقلا تعرض خلالها لأنواع التعذيب. ولما لم يحصلوا منه على اعتراف بالانتماء لأي حزب سياسي أطلقوا سراحه بعد ان وقع على تعهد يقضي بإعدامه ان ثبت انتماءه لأي حزب سياسي خلاف حزب السلطة.

ـ يجب أن أغادر بغداد بأسرع ما يمكن. قال رياض لشهرزاد...

ـ إلى أية محافظة ستذهب؟

ـ سأغادر إلى الخارج.

ـ وأنا...؟

ـ يجب أن أختفي بعض الوقت ريثما تنفرج الأمور.

ـ ولكن...

ـ سأكتب لك باستمرار.. دعيني أودعك دون دموع.. لا أريد أن تبقى صورة دموعك أمامي.. ابتسمي...

* * *

الحكاية الثانية: الجزائر

لم يكن يعرف المسافة التي قطعتها الطائرة ولا سرعتها، ولكنه كان يشعر بالاطمئنان كلما ابتعدت الطائرة عن بغداد.

شعور مأساوي ينتابه، فهو يشعر بالحزن والفرح معا، الحزن لانه يفارق بلده الذي لم يخطر بباله أنه سيغادره يوما، أما الفرح فلأنه يبتعد عن ذئاب الشرطة السرية وأقبية التعذيب.

استرجع شريط الأيام القليلة السابقة لسفره وطريقة حصوله على جواز سفر، جرب أن يغمض عينيه وينسى الأيام المرعبة التي عاشها... لا يستطيع تصديق اجتيازه نقاط التفتيش في المطار والنجاة من براثن كل هؤلاء الشرطة ورجال المخابرات!!

حين أخذ الشرطي جواز سفره وبطاقة الطائرة، وحدق في صورته المثبتة في جواز السفر ومن ثم رفع بصره ليحدق في وجهه ثانية، ارتسمت على وجه رياض ابتسامة باهتة لا تفصح عن شيء، وبعد أن سلم الشرطي الجواز والبطاقة إلى الضابط القابع في مكتبه الصغير، حسب رياض أن الأمر سيفضي إلى اعتقاله، وأصبحت الدقائق بطيئة رغم أن الشرطي عاد وسلمه أوراقه وأشار إليه بيده كي يدخل قاعة المرور (الترانزيت) فغمغم بكلمات لا يفقه لها معنى، ترى أكانت تعويذة أم ترنيمة حفظها منذ صباه.. أم أقذع سباب يوجهه إلى صورة الرئيس المعلقة على جدار المطار.

صحا من غفوته في مطار العاصمة الجزائرية التي بدت بيضاء متوهجة تحت أشعة الشمس المشرقة وكأنها جمل أبيض يطل برأسه على المياه الزرقاء للبحر الأبيض المتوسط.

بعد الأسئلة وتفتيش الجمارك، خرج من المطار فوجد نفسه لوحده في الشارع لا أحد ينتظره.

حين سأله سائق التاكسي: إلى أين؟

طلب منه رياض أن يأخذه إلى أحد الفنادق المناسبة.

وقف أمام مسؤول استعلامات الفندق وسأله عن حجرة يقضي فيها بضع ليال، فرد عليه بفرنسية لم يفهمها، فبادر أحد الواقفين وترجم له الجواب: لا توجد حجرة فارغة.

استفسر عن فندق قريب، فاستطاع بعد مشقة الحصول على مكان متواضع قضى فيه أياما قليلة تعرف بعدها إلى بعض المعارف فاستضافوه عندهم، وعلم أن العديدين من أمثاله فروا بطريقة أو بأخرى من مخالب النظام ووصلوا إلى هذا البلد البعيد حتى أصبحوا ظاهرة ملفتة للنظر، وان البعض منهم لم يستطع العثور على مكان ينام فيه فاضطر إلى قضاء الليل في الحدائق أو الحمامات العامة.

وما زال يذكر يوم ذهب إلى أحد معارفه فاستقبله ببرود ظاهر، كان يسكن لوحده شقة فاخرة، لكنه لم يكن مستعدا لاستضافته، مما حدا بأبي عليوي أن يقول: إن هؤلاء عاشوا منعمين مرفهين لأنهم قضوا سنوات طويلة يدرسون فيها على حساب المنظمات السياسية والأحزاب في الدول الاشتراكية، حتى حصلوا على الشهادات العليا، والآن تراهم يرفضون تقديم يد المساعدة لعشرات المعارف الذين يقضون الليالي على قارعة الطريق بعيدا عن الوطن.

بعد العديد من المحاولات وجد مكانا للعمل وحصل على سكن يبعد بعض الشيء عن المدينة. ولم تكد تمضي بضعة شهور على استقراره حتى بدأت أنباء اشتعال أوار الحرب بين وطنه وإيران تملأ الصحف ونشرات الأخبار، وشيئا فشيئا انقطعت الاتصالات والروابط بينه وبين الأهل والأقارب الذين تبعثروا بين المدن المقدسة وغير المقدسة.

هاهو ينظر إلى وجهه في المرآة فيجد علامات الحزن مرتسمة أمامه، يعاني الوحدة في منزل ناء يبعد آلاف الأميال عن مدينته (القلعة) فتعاود مخيلته بين الحين والآخر ذكريات الأيام الجميلة التي قضاها في تلك الأزقة المتربة.. حاول التخفيف من أعباء وحدته فأخذ في تدوين ملاحظاته عن الواقع الجديد الذي بدأ يعيشه ويراه، فنالت اهتمامه مظاهر الديمقراطية في الحياة السياسية، ومشكلة قبائل البربر (الامازيغ) التي كانت مثار جدل ونقاش بينه وبين العديد من زملائه، إذ أن قبائل الأمازيغ يطالبون بحقوقهم الثقافية والسياسية ولا تجد مطالبهم آذانا صاغية من لدن السلطات المتعاقبة منذ استقلال الجزائر، فكانت انتفاضة نيسان (أبريل) التي أرادت القبائل فيها إسماع صوتها للسلطات وإظهار مدى قوتها.

ـ يجب القضاء على الانتفاضة وقمعها. قال أحد المتعصبين.

ـ وهل القمع هو الحل الذي تقدمه لمن يطالبون بأبسط حقوقهم. ألا يتناقض ذلك مع ما تدعيه من إيمان بالأفكار التقدمية. ثم لماذا لا ترى إلا القمع والقوة وسيلة للتفاهم مع الآخرين. أجابه معلم المدرسة الابتدائية الذي أمضى أكثر من ثلاث سنوات يدرس في مدينة (الأربعا نايت ايراثن).

ـ إنهم يحاولون تقسيم البلاد وإن مطالبهم لا مبرر لها، والمسألة برمتها ماهي إلا مؤامرة من فرنسا كي تستغل مطالبهم وتعود من جديد لاستعمار البلاد.

ـ أظن أنك تتهمهم نفس تهم الحكومة، فما كل من يطالب بحق يحاول تقسيم البلاد، ثم ألا تتفق معي بان الحكومة نفسها تتعاون مع فرنسا أكثر بكثير من تعاونهم معها.

لم تكن هناك جدوى من الإطالة في النقاش، فكل له قناعاته التي رسمتها الظروف، لذلك ما كان بالإمكان التوصل إلى رأى ناجع، فالحكومة سدت الأبواب بلجوئها إلى العنف والقمع.

كان مقهى اللوتس في العاصمة الجزائر مزدحما، وأغلب رواده من طلبة وأساتذة جامعة الجزائر، وجدت مكانا فيه إذ رأيت أحد معارفي يجلس لوحده.

طلبت فنجان قهوة وكأس ماء وتجاذبنا أطراف الحديث.

ـ هل تعلم ان أحدهم اختطف حقيبة يد أم نوري. قال كامل بنبرة حزينة.

ـ وماذا في الأمر، كثيرا ما تتعرض حقائب يد النساء للخطف والسرقة.

ـ صحيح، ولكن المشكلة هي ان جوازات سفرهم كانت في تلك الحقيبة، لذلك أخذت أم نوري تركض خلف المختطف حتى أغمي عليها ونقلت إلى المستشفى حيث أجهضت هناك.

ـ يا للأسف، هل هي بخير الآن، وما هو مصير الحقيبة؟

ـ لقد رمى المختطف الحقيبة بعد تفتيشها ولم يجد فيها شيئا يستحق السرقة من مال أو حلي، مسكينة، لقد حرصت على جوازات السفر أكثر من حرصها على نفسها لأنها تعلم أن السفارة لا تزود المعارضين بجوازات سفر جديدة.

ـ هل تذهب لنتغدى معا؟

ـ لا، لقد أكلت قبل قليل شيئا من المركاز، سأشرب معك قدحا من البيرة، لنذهب إلى حانة الديك المقدام، فهي قريبة.

ـ يبدو أنك مغرم باسمها، هيا.

كان الفصل حارا والحرارة تزداد ارتفاعا يوما بعد آخر، حتى ان بعض الغابات أضحت طعاما للنيران، وكان رياض قد بدأ يستعد للسفر إلى المغرب، حيث قرر أن يمضي بقية العطلة الصيفية هناك، فالمغرب قريب وله بعض الأصدقاء هناك شجعوه على التوجه إليهم.

حصل على تأشيرة الدخول وحزم أمتعته وتوجه إلى وهران، فوصلها مساء حيث قضى فيها ليلته تلك. كانت هناك صعوبة أيضا في الحصول على مكان ملائم للنوم. وحين استأجر حجرة في أحد الفنادق وجد الماء فيها مقطوعا، استفسر من صاحب الفندق، وأخبره ان الماء لا يصل إلى الطوابق العليا، وهو ينقطع ليلا وقد يأتي صباحا.

ـ كل هذا البحر الذي تنام قربه المدينة ولا ماء فيها!

ـ باستطاعتك انتظار الصباح.

***

الحكاية الثالثة: المغرب

وصل الرباط مساء يوم جميل واستأجر شقة مفروشة في حي أكدال الذي يتميز بهدوئه وجماله.

هناك عاش حياة بوهيمية مارس فيها كل أنواع اللهو. وشعر بالفرح للانفتاح الذي كان يراه في مدينة الرباط، فالمرأة مع الرجل في كل مكان، في المقهى والبحر والشارع والسينما....

حين جلس مع مجموعة من زملائه ودار الحديث عن المرأة والجنس، صرح قائلا بصراحة يحسد عليها، انه عاجز عن ممارسة الحب مع كل هذا العدد من الفتيات، فأشار عليه أحدهم بمراجعة كتاب الروض العاطر للنفزاوى، وعلق آخر بخبث ظاهر قائلا:

ـ لا عليك...العب بعض التمارين الرياضية وعلى الخصوص (تمارين شناو) واشرب ربع قنينة حليب سباع، وستجد نفسك كالديك الرومي (علي شيش). ضج زملاؤه بالضحك ونال يومها لقب علي شيش.

عرف العديد من الفتيات وسهر ونام معهن، وكانت حرية الفتاة المغربية، مثار نقاش بينه وبين زملائه، فمنهم من كان يرى أن الحرية التي تتمتع بها المرأة المغربية تجعلها تسيء التصرف والسلوك، لأنها جاهلة وأمية. فعلق معروف قائلا:

ـ لا...إن الفقر هو الذي يجعلها تسلك سلوكا لا يليق بالمرأة، فما من امرأة ترغب في أن تكون مبتذلة لولا هذا الفقر اللعين.

فأجابه جاسم وهو يقطب جبينه:

ـ إن أفكارك مقيدة إلى العامل الاقتصادي فقط لأنك تؤمن بالماركسية، ولا ترى شيئا غير الاقتصاد يحرك المجتمع، أعتقد ان هناك عوامل اجتماعية وتاريخية كثيرة لا علاقة لها بالفقر والغنى.

حاول رياض مقارنة الوضع الاجتماعي للمرأة في المغرب مع المرأة في أوربا فتدخل حساني مرسلا أحكاما قاطعة جرد فيها المرأة أحيانا من الشرف وأخرى راح يتهمها بالفساد والتحلل. فوجد رياض نفسه يرد عليه مشاكسا بقوله: ـ إنك يا حساني مازلت فلاحا، لم لا تذهب إلى حقلك كي نتخلص من آرائك المتخلفة.

يشتد حنق وغيظ حساني ويهاجم رياض:

ـ إنك تدلي بهذه الآراء كي تبرر علاقتك الغرامية ومشروع زواجك من سميرة، ولكنني أقولها لك بكل صراحة ان من يتزوج من أمثال هؤلاء الفتيات سوف لا يجد الراحة في حياته مطلقا.

فرد عليه جاسم معنفا:

ـ لا أخي، أنت مازلت بدوي النزعة تحمل آراء العصر الحجري، لقد تغير العالم وأنت مازلت في مكانك، اذهب إلى الربع الخالي مع أفكارك كي تجد لها مكانا هناك.

ويستمر النقاش طوال المساء دون نتيجة، الشيء الوحيد الذي يبقى ويستمر بعد ذلك هو حب رياض للفتاة الرقيقة سميرة التي عرفها مؤخرا.

سميرة التي كان يدلعها فيناديها سوسو ويضيف حين ينتشي سكرا لقبا آخر استمده من مسلسل مصري فيصبح سوسو طرب.

عرفها رياض فتوثقت علاقته بها وكانت لها ثقافة تؤهلها امتلاك القلوب، فنوى رياض الاقتران بها رغم اعتراضات حساني...

توطدت علاقة رياض مع سميرة وأسرتها واتفق معهم على خطبة سميرة ثم تسجيل الزواج رسميا في المحكمة كي يكملوا الإجراءات الرسمية الطويلة، وبعد ذلك يحددون موعدا للزواج، ربما يكون في العام القادم.

كان حريصاً على إنهاء الإجراءات الرسمية، لان السفارة العراقية هناك لا تمنح الموافقة على الزواج إلا للمؤيدين لها ولا تقدم التسهيلات الرسمية المطلوبة للمعارضين لسياسة الحكومة.

استشار أحد أصدقائه، فأعلمه أن السفارة تحاول عرقلة كل مشروع زواج كي لا يحصل أحد على الإقامة في المغرب، خاصة وان أغلب الذين أوفدتهم الحكومة عدلوا عن العودة إلى البلاد بسبب الحرب الطويلة، ومنهم من تزوج كي يحصل على الإقامة فقط، وأضاف بلهجة ساخرة:

ـ إن الحكومة تريد زيادة عدد السكان، والظاهر أنها تخلت عن قوميتها وأصبحت تؤمن بالقطرية الجنسية.

فأجابه رياض:

ـ أنا أعرف أبعاد ذلك، ولكنى لا أستطيع حتى مراجعة السفارة، انهم سيطلبون بيانات ومعلومات عن أسرتي وأنا لا أريد إعطاءهم أية معلومات قد يستفيدون منها.

ـ إذن عليك البحث عن وسيلة أخرى، كالاتفاق مع أحد كتاب العدل لتسجيل الزواج دون كتاب من السفارة.

ـ وهل هناك من يقوم بذلك؟

ـ هناك كاتب في المحكمة بمدينة المحمدية، علمت أنه سجل عقد زواج أحد الأصدقاء دون رسالة من السفارة. أعتقد ان الأمر بحاجة إلى بعض المال.

ـ شد الرحال إلى مدينة المحمدية الواقعة على شاطئ الأطلسي، وما أن حل بها حتى قصد دار كاتب المحكمة الذي استطاع الحصول على عنوانه من أحد أصدقائه بالرباط.

ـ غير ممكن. قال كاتب العدل.

وحين استفسر منه عن الأمر، أخبره أن هناك إجراءات جديدة وتعليمات من الحكومة تمنع تسجيل عقود الزواج دون كتاب من سفارة الرجل الذي يبغي الزواج من امرأة مغربية، وذلك لحدوث مشاكل كثيرة للواتي تزوجن برجال من الخليج، فغالبا ما يتركوهن كمحظيات يزورونهن خلال أشهر الصيف حين يصطافون في المغرب، أو أن البعض يأخذهن إلى الخليج ليصبحن هناك نساء من الدرجة الثانية أو خادمات لأسر كبيرة فتحدث المشاكل، وقد كثرت الشكاوى في السفارات المغربية وزادت الفضائح التي سببت إحراجا كبيرا للحكومة.

عاد إلى الرباط دون إتمام العقد فالتقى حساني الذي طلب منه أن يترك الأمر برمته لان السفارة متفاهمة مع سلطات المغرب في عرقلة مثل هذه المعاملات.

توجه رياض إلى بيت سميرة حيث التقاها وأخبرها تفاصيل الموضوع.

حاول محاولة أخيرة لم تنجح هي أيضا، إذ جرت العادة على تزوير كتب السفارة، فأراد تزوير كتاب موجه إلى السلطات المغربية، ولكن ختم السفارة المزور كان قد أُتلف بسبب افتضاح أمره، وهكذا ذهبت آخر محاولة في الحصول على كتاب السفارة أدراج الرياح. اتفق مع سميرة على تأجيل الزواج حتى الصيف فعسى أن تتغير الأحوال وتتبدل الظروف.

بعد أيام قليلة من بداية شهر أيلول حزم حقائبه وودع سوسو طرب وعاد من حيث أتى على أمل أن يلتقي بها قريبا.

* * *

الحكاية الرابعة: تونس

سأل رياض نفسه للمرة الرابعة أو الخامسة، عما إذا كان من المستحسن أن يرسل برقية إلى سميرة ليخبرها فيها عدم إمكان قدومه إلى المغرب بسبب عدم منحه تأشيرة الدخول، أم يكتب لها رسالة مفصلة بذلك؟ فالمحادثات التي كشفت عنها الصحف والتي جرت بين الملك والوزير الإسرائيلي، حفزت بعض الدول العربية على الاحتجاج الشكلي على ذلك اللقاء الذي تم في مدينة أفران. وبسبب مواقف الاحتجاج تلك اتخذت الحكومة المغربية قرارا بمنع زيارة مواطني بعض الدول العربية للمغرب وعدم منحهم تأشيرة دخول، وكان رياض من بينهم. وهكذا تضرر الناس وبقي الحكام بمنأى عن الضرر. وجد رياض نفسه يحرم دون سبب من زيارة المغرب ولقاء حبيبته رغم الاستمارات التي ملأها والأوراق والصور التي قدمها للسفارة المغربية من أجل الحصول على تأشيرة الدخول. دفعه اليأس إلى كتابة رسالة مختصرة إلى سميرة صب فيها جام غضبه على الدنيا وطلب من سميرة أن تكون في حل من أي عهد قطعاه بينهما. وبذلك انتهت علاقة حب كان قد رعاها حتى أورقت ونمت رغم تباعد المسافات.

بين ذلك اليأس والحيرة فاجأه صديقه أحمد بفكرة جديدة، إذ اقترح عليه التأهب للقيام بسفرة إلى تونس خلال العطلة الصيفية القادمة. رحب بالفكرة وتذكر صديقه مختار الذي كان يعمل معه في المعهد وترك العمل وغادر عائدا لبلاده تونس قبل أكثر من عام. بحث عن عنوانه بين أوراقه ثم كتب له رسالة يخبره فيها بعزمه على زيارة تونس.

وما أن حل الصيف حتى كان هو وأحمد يتوجهان إلى تونس بالسيارة، ويوم وصلاها وجدا مختارا بانتظارهما. نزلا أحد الفنادق وزارا أشهر معالم المدينة. ثم دعاهما مختار إلى تناول العشاء عنده، تحلقوا حول مائدة شرقية عامرة بصنوف المأكولات الشهية، ورغم أن رياض كان قد عرف أكلة الكسكسي الجزائري والمغربي، إلا أنه وجد طعما لذيذا جدا في أكلة الكسكسي التونسي، وحين أسر بذلك إلى صديقه أحمد فيما بعد سارع يعلق قائلا : إن ذلك الطعم اللذيذ يعود لوجود الآنسة كوثر، فالماء الذي طبخ فيه الكسكسي حصل على نكهة طيبة من عبير اسمها، ألم يستشهدوا بماء الكوثر، هو ذاك.

لا أحد يستطيع نكران جو الحبور الذي نشر أجنحته على تلك الأمسية العائلية البهيجة التي ذكرت رياض بأيامه في بلاده بين أهله، وكان لوجود كوثر أريجا خاصا أضفى على تلك الأمسية جمالا أخاذا، فهي إحدى قريبات أسرة مختار، وكانت قد جاءت من مدينة بنزرت لزيارتهم.

وفي الأيام التالية خرج رياض برفقة كوثر وزارا المسرح الروماني، وجامع الزيتونة والأسواق الشعبية المحيطة به والتي تعرض الصناعات التقليدية الجميلة والتحف والمصوغات الذهبية في سوق خاص للذهب. وفي مساء الجمعة الأولى لزيارتهما، كان رياض يتنزه رفقة زميله أحمد في شوارع العاصمة، وإذا به يقول لأحمد دون مقدمات:

ـ أتعرف كم أحببتها؟ لم أكن أتوقع أن أقع في حبائل الحب بعد كل تلك الإخفاقات.

ـ من ... كوثر؟ ستبقى رقيق القلب أينما ذهبت، أظنك كازانوفا العرب، الأفضل لك أن تعود إلى الجزائر قبل أن تعلق هنا.

ـ لا.. لا.. أنا أفكر بأفضل الحلول.

ـ يبدو انك تفكر بالزواج، أليس كذلك؟

ـ وهل في ذلك مأخذ؟ لقد أحببتها حبا عظيما ولا أستطيع مفارقتها.

ـ أخفض صوتك يا ابن الحلال قبل أن يسمعك الناس ويحسبونك مجنون ليلى.

سارا معا حتى وصلا تمثال بورقيبة، فقال له أحمد:

ـ اذهب وقف قرب تمثال بورقيبة كي التقط لك صورة تذكارية.

ـ لا، لا أريد التقاط الصور هنا، لنذهب ونصور قرب تمثال ابن خلدون.

وفي طريقهما التقيا كوثر وأسرة مختار قرب فندق أفريقيا، فدعاهم رياض إلى الجلوس في المقهى القريب ليشربوا شيئا.

بعد ذلك ببضعة أيام كان رياض قد اتفق مع كوثر على أن يخطبها، ثم طلب من مختار أن يسعى له عند أهلها كي يوافقوا على زواجهما.

سعى مختار سعيا مخلصا في الموضوع، وكان أن حصل على موافقة والد كوثر، ولكن أمها لم توافق على الفكرة، لان رياض يعمل في بلد آخر، (وهو يكبرك بعشر سنوات يا بنتي) قالت الأم وهي تصر على رفض فكرة الزواج.

ثم اقتربت العطلة الصيفية من نهايتها ولم يستطع رياض ولا كوثر تغيير موقف الأم، وحين تهيأ للرحيل أعدت له كوثر بعض الأنواع من الحلوى التونسية الشهيرة، وودعها على أمل المراسلة واللقاء في المستقبل القريب.

***

الحكاية الخامسة: تيزي اوزو

اعتاد رياض دعوة أصدقائه لسهرة طعام وشراب إثر كل سفرة يعود منها سالما غانما، وهذا ما حصل بعد عودته من تونس، فها هو يستعد لاستقبال أصدقائه بعد وصوله لمدينة تيزي أوزو.

هتف لزميلته علية الخطيب كي تأتي مبكرة وتساعده في تحضير بعض الأكلات، وما أن اقتربت الساعة من الثامنة والنصف حتى كان أبو غادة الموسوي أول القادمين، فدخل وهو يشمشم رائحة الطعام مفتشا عنه بأنفه العتيد يمنة ويسرة.

ـ يا لرائحة الطعام الشهي.. أين الدجاج وأين المشويات... أين الجماعة. لماذا لم يصلوا حتى الآن.. متى نأكل ومتى نشرب ومتى نسكر ومتى نزوّع؟ قطعت عليّة الأغنية التي كانت تترنم بها وقالت:

ـ سيأتون يابه، ليش مستعجل... كل الليل عشا.

انتظم حبل الجماعة بعد وقت قصير فرفع أبو سمير كأسه وقال:

ـ لنشرب نخب عريس المستقبل.

فعلق هاتف قائلا:

ـ حدد رجاء. المستقبل القريب أم البعيد؟

ـ لا.. لا، هذا فلم الأسبوع القادم.

وما أن فرغ الأصدقاء من عب الكأس الثانية حتى انبرى بهجت الكردي يقول:

ـ لدى اعتراض على زواج رياض من أجنبية.

ـ ولكنها تونسية وليست أجنبية، ألسنا أمة واحدة، يا بهجت، يا بعد روحي! قالت عليّة الخطيب وهي ترفع ملعقة من اللبلبي لتلتهمها.

ـ لا، هناك فرق كبير، من الأفضل أن يتزوج عراقية.

ـ ولكن لماذا؟ ان هذا تدخل غير مقبول. قال هاتف بحدة.

ـ المسألة وما فيها ـ قال أبو نوري وكأنه مسؤول في الجمعيات الفلاحية ـ هي أنه يجب أن نفهم وضعنا باعتبارنا معارضة سياسية للحكم القائم، ولكوننا نعيش في المنفى، فان

ذلك يفرض علينا المحافظة على وجودنا ككتلة متميزة كي لا نتفتت ونضيع في المنافي.

فقاطعه أبو ناتاشا محاولا تخفيف حدة النقاش:

ـ يا أخي اشرب ولا تجعل من موضوع الزواج قضية سياسية، أو حزبية بحاجة إلى مؤتمر، فما زالت أوراق مؤتمر الحزب خضراء ولم تجف بعد..

رمقه أبو نوري بنظرة جانبية من خلف نظارته التي تخفي عينه الكريمة وأضاف:

ـ أعتقد أن المسألة بسيطة من وجهة نظرك لأنك ذهبت إلى موسكو من أجل الدراسة والعودة إلى الوطن، فتزوجت هناك ونسيت الوطن..

ـ اهووه.. دخلنا بإيراد ومصرف وراح تصير القضية اجتماع حزبي وتصويت وانتخابات...

فلم يجد رياض بدا من التدخل قائلا:

ـ لا أظن أن الموضوع بهذا التعقيد.. فالزواج مسألة شخصية بحتة وهي تخص الرجل والمرأة، فلماذا تجعلون منها قضية خطيرة إلى هذه الدرجة، كما أرجو ان لا تطلبوا تدخل جامعة الدول العربية.

بعد مرور أشهر قليلة على تلك السهرة حدثت تطورات مثيرة في تونس، فقد عمت الاضطرابات وأزيح بورقيبة عن كرسي الحكم الذي نام عليه طويلا.

يوم ذهب رياض إلى سفارة تونس يطلب تأشيرة الدخول من أجل السفر، أبلغوه أن مجريات الأمور والأحداث لا تسمح بإعطاء تأشيرة للعراقيين.

ثم فشلت عدة محاولات بذلها للحصول على تأشيرة الدخول، واضطر إلى الكتابة لكوثر يشرح لها الأمر، وبين لها أسباب عدم منحه التأشيرة، وعدم استطاعته التوجه إليهم.

* * *

الحكاية الأخيرة: القلعة

قالوا إن رياض قرر العودة إلى مدينة القلعة، مسقط رأسه، رغم تحذيره من مغبة بطش السلطات بالمعارضين الذين تتمكن منهم، وان دعوة الناس إلى العودة إلى العراق وقرارات العفو الصادرة عن الحكومة ماهي إلا حبر على ورق، فلا يجب أن يركن إليها، ولكن مع ذلك عاد رياض دون أن يخبر أحدا إلا بعض المقربين إليه، ويذكر أنه قال لهم إنه سيذهب ليتزوج في مدينته.

وحكى البعض انه بعد عودته بأسابيع أختطف من قبل الشرطة السرية واقتيد إلى بغداد حيث تمت تصفيته جسديا هناك. ثم أشاعوا عن اختفائه حكايات مختلفة كي يظللوا الناس.

وقد حدثتنا عليّة الخطيب نقلا عن إحدى قريباته حيث التقتها في الشام قرب مرقد السيدة زينب الحكاية التالية : قالت كنت أجلس يوما مع مجموعة من النساء المتسربلات بالعباءات السوداء، فأخبرتني إحداهن إنها رأت رياض مساء يوم الخميس قبل العيد الكبير بيومين، كان جالسا على بساط فوق سطح دارهم وأمامه قنينة شراب أبيض، ثم شاهدته في اليوم التالي حين صعدت لتشجر التنور راقدا دون حراك، ورأت حورية تتصاعد مع الدخان الأبيض المنبعث من التنور، طارت الحورية مع الدخان وحلقت فوق سطح الدار ثم استدارت وحامت فوق رأس رياض فنهض من نومه متثاقلا وطار إثرها حتى اختفى وإياها في الأفق.

وكان أن تناقل الناس تلك الحكاية وذهبوا إلى القول ان تلك الحورية ماهي إلا سعلاة تتقمص هيئة حورية تسلب عقول الرجال بجسدها العاري وشعرها المسبل حتى أخمص قدميها. وحكوا ان رياض تبعها حتى دخلت مغارة على شاطئ الغراف فدخل إثرها ولم يعرف له خبر بعد ذلك سوى ما شاع بين الناس من أخبار وحكايات.

* * * * *

آراء

من آراء الكتّاب في قصص مؤيد عبد الستار:

في أجواء قصصه نجد الأشياء بأسمائها، الوقائع والشخوص والأماكن يقدمها بوضوح وينشرها خلفية واسعة ومباشرة لحدث قصصي يجري بتصاعد سريع محكم، والنهاية تأتي مبتورة وسريعة لما يسبقها ويتلوها من شجن تشعرنا بالانقضاء المحتوم الذي لا تجدي معه مماطلة.

القاص إبراهيم أحمد

من مقدمته لمجموعة حكايات لبغداد، طبعة براغ، 1994

أعاد لي بعض ما افتقدته يوما داخل وطني: حدث بسيط وسرد يحيط بالحادثة، ولغة ما أجمل هدوءها الراكن.

الناقد ياسين النصير

من مقدمته لكتاب أنشودة الوطن والمنفى، قصص مختارة، بيروت 1997

استوقفتني محاولة القاص جعل الواقع الاجتماعي بكل تعقيداته مادة لقصصه، وما أصعب هذا الواقع الذي يتناوله القاص.

المخرج المسرحي

د. داود كور كيس جريدة بغداد / لندن

مقال:

رائحة قهوة، رائحة أرض في قصص تعبق بالوفاء

بقلم الشاعر باسم المرعبي * حول مجموعة قصص امرأة من ورق

الاغتراب سمة طاغية في قصص وحكايات مؤيد عبد الستار، في مجموعته الجديدة الموسومة امرأة من ورق. تحت وطأة هذا الهاجس ينسج القاص موضوعاته وعوالم

شخوصه، ومهما تعددت اشكال التعبير والافصاح وتفاوتت المعالجة بين الاسلوب التهكمي الساخر، او نقيضه، الا ان القصص في المحصلة تتوحد، كما يتوحد ابطالها في القهر والنفي والضياع.

فثمة ضحايا على امتداد القصص، لا يتردد القاص في الكشف عن جذورها وانتماءاتها بأسلوب يميل إلى البساطة والتبسيط، مذكرا بالحكايات الشفاهية، والكاتب يشير إلى ذلك بالتسمية المباشرة كما في العنوان الجانبي للكتاب.

حكايات تسرد ببراءة، براءة ابطالها وطهارتهم، كما في قصة ولد ببغداد وبطلها الشاب الذي تستغل السلطة براعته في تقنية الاجهزة الكهربائية وتستخدمه في تركيب جهاز يكتشف في ما بعد انه لأجل تعذيب المعارضين السياسيين، ولكن (في اليوم التالي حين دخلت مفرزة الشرطة غرفة فاخر حسين الصفار، وجدوه قد ربط معصميه باسلاك كهربائية، وقرب جثته رسالة يبين فيها اسباب انتحاره.)

ان معظم موضوعات مؤيد عبد الستار تقنعنا بواقعيتها لصدقها وتلقائية السرد، فتصلنا دون كلفة متدفقة بمشاعر جياشة بوطن يكاد يحضر في كل سطر من سطور هذا الكتاب.. وطن أصبح حلما يود الكاتب لو يلتقيه وان على صفحات كتاب كما جاء في الاهداء.

والكتاب بهذا المعنى، في معظمه، وثيقة وفاء حقيقية من محب لوطنه يتغنى برائحة ترابه ومائه وبيوته. وبكل ما يمت لهذا الوطن (أين من هذا السلم ذاك الذي كان يفضي إلى سطح دارهم الطيني؟ كان سلما مشيدا من الطابوق والجص الابيض يفوح بعطر التراب الخالد حين يرشه الجد بالماء الذي ينثره من ابريقه الفضي قبل صلاة المغرب....)

ان البطل الراوي في اغلب قصص المجموعة يعيش زمنين ومكانين في الآن ذاته، وهو لذلك منفي خارج لحظته ابداً، وكأنه بذلك يعيش منفى مزدوجا، فهو ليس بالمستسلم لواقعه الراهن، كي ينقاد إلى الاندماج في المكان. الزمن الجديد، وإذا فانه ليس أكثر من جسد غريب يبادل الاشياء الامتعاض والمقارنة على الدوام، مقارنة كل شيء يتعامل معه او تقع عليه عيناه بأشياء وموجودات وطنه (كان ابو عامر يعرف مزاج وذوق كل رواد المقهى، ماذا يفضلون، وماذا يشربون. كان يعرف من يشرب القهوة سادة، ومن يشربها مع السكر، من يشربها مرة ثقيلة ومن يشربها رائقة، يا لطعم تلك القهوة المعطرة بالهيل....)

رائحة القهوة تقود إلى بلاد بأكملها، وكل ما يحكم ويتقاسم هذه البلاد بسجونها ومتاهاتها، بسهولها، بأنهارها، بطبيعتها المتنوعة، بعذاباتها ودموع ابنائها...

كل هذا يستطيع القارئ ان يستحضره بأقل من سطر من سطور هذا الكتاب وفي كثير من المواضع، حيث يقودنا الكاتب إلى عوالم بلاد ساحرة، الكاتب الذي يحرض بدوره عبر ملمح ما يعيشه في راهنه، واراني هنا، اميل لأن استعير من ستانسلافسكي، المسرحي الروسي الشهير، اصطلاحه ومفهومه " الذاكرة الانفعالية " وهي من تقنيات الممثل التي يجب ان يلم أو يعمل بها، على المسرح حسب دوره، فاذا كان الدور ينطوي على حالة حزن أو ألم، فعلى الممثل ان يستحضر واقعة في هذا السياق حدثت له، ليتطابق اداؤه ومشاعره مع واقعة المسرح، وحتى الرائحة هي من مواد ووقائع الذاكرة الانفعالية، وهذا ما ذكرتني به مباشرة قصة (فنجان قهوة) وأوحت به اليّ الكثير من الهواجس التي تلازم بطل او عموم ابطال قصص المجموعة فكثير من ذكرياتهم يصلح لان يكون مادة خصبة لذاكرة مسرح انفعالية، حيث يكون موضوعه، خصوصا، وأبطاله مضرجين بشارات النفي والحنين هذا الذي صار مادة الكثير من النتاج الادبي العراقي الذي يكتب في المنفى بمختلف مستوياته وآفاقه.

.....

مقال بقلم الشاعر باسم المرعبي حول المجموعة القصصية امرأة من ورق لمؤيد عبد الستار

جريدة القدس العدد 3612 الاربعاء 20 كانون الاول (ديسمبر) 2000

باسم المرعبي شاعر عراقي يقيم في السويد.

بطاقة المؤلف

* مؤيد عبد الستار، ولد لأبوين كرديين عام 1948 في مدينة الكوت

* أكمل المدرسة الابتدائية فيها ثم انتقل مع أسرته إلى بغداد.

* تخرج في كلية أصول الدين ببغداد عام 1973.

* عمل في مديرية تربية ديالى ووزارة الصناعة ببغداد ثم اضطر بسبب الظروف السياسية وسياسة التبعيث التي اتبعها النظام إلى مغادرة العراق عام 1979 م إلى الهند، حيث التحق بجامعة دلهي وحصل على الماجستير في الآداب، ونال الميدالية الذهبية، ثم التحق بجامعة عليكرة الإسلامية حيت حصل على الدكتوراه في الآداب عن بحثه الموسوم السيرة الذاتية في الأدب العربي

عام 1984 م. عمل أستاذا للأدب في الجزائر / جامعة تيزي أوزو الأعوام 1984 - 1988 م.

* عمل أستاذا للأدب في ليبيا - طرابلس / جامعة ناصر الأعوام 1988 - 1990 م.

هاجر إلى السويد عام 1990 ويقيم فيها حالياً.*

درس اللغة السويدية والصحافة في السويد وعمل في مختلف المجالات الثقافية والتربوية.*

* يجيد العديد من اللغات ويترجم عن الانجليزية والسويدية وله كتب مترجمة.

صدر له:

أجراس الرحيل، قصائد سوريا 1987

حكايات لبغداد، قصص قصيرة براغ 1994

السيرة الذاتية في الأدب العربي، دراسة نقدية لبنان 1996

رامايانا، ملحمة هندية ترجمها عن الإنجليزية لبنان 1996

اركالا، قصائد، السويد عام 2001

الكلام المباح، مقالات في السياسة والأدب السويد 2002

الطريق إلى بغداد (رحلة) ترجمها عن الإنجليزية لندن 2003

ملاحظة:

نشرت معظم القصص في المجلات والصحف العراقية، على سبيل المثال:

سجائر تركية نشرت في مجلة الثقافة الجديدة

حمار الرئيس نشرت في مجلة المدى عدد تموز 2002

السيد لجن في لندن نشرت في مجلة الاغتراب الادبي العدد 9 سنة 1988

ولد ببغداد نشرت في مجلة الاغتراب الأدبي العدد 16 سنة 1990

عقوبة الهرب نشرت في مجلة الاغتراب الادبي العدد 25 سنة 1993

الفهرســـت

الإهداء
امرأة من ورق
البحيرة البيضاء
فنجان قهوة
مذكرات حمار الرئيس
الرجل الذي صار قردا
البحـيـرة البيضاء
فنجان قهوة
القسم الثاني
ولد ببغداد
قوس قزح
عقوبة الـهرب
الشرطة وبنات آوى
السكـيـن
السيد لـجـن بلندن
سجائر تركية
سجن الكوت
حكايات لبغداد
الحكاية الأولى: العراق
الحكاية الثانية: الجزائر
الحكاية الثالثة: المغرب
الحكاية الرابعة: تونس
الحكاية الخامسة: تيزي أوزو
الحكاية الأخيرة: القلعة

ملاحظة: صدرت الطبعة الاولى للمجموعة القصصية امرأة من ورق عن دار الحكمة بلندن عام 2004

وفي هذه الطبعة الالكترونية اضيفت اليها قصة الرجل الذي صار قرداً التي نشرت في العديد من الصحف.

لوحة الغلاف للفنان رستم ئاغاله / السليمانية.

امرأة من ورق

قصص

مؤيد عبد الستار

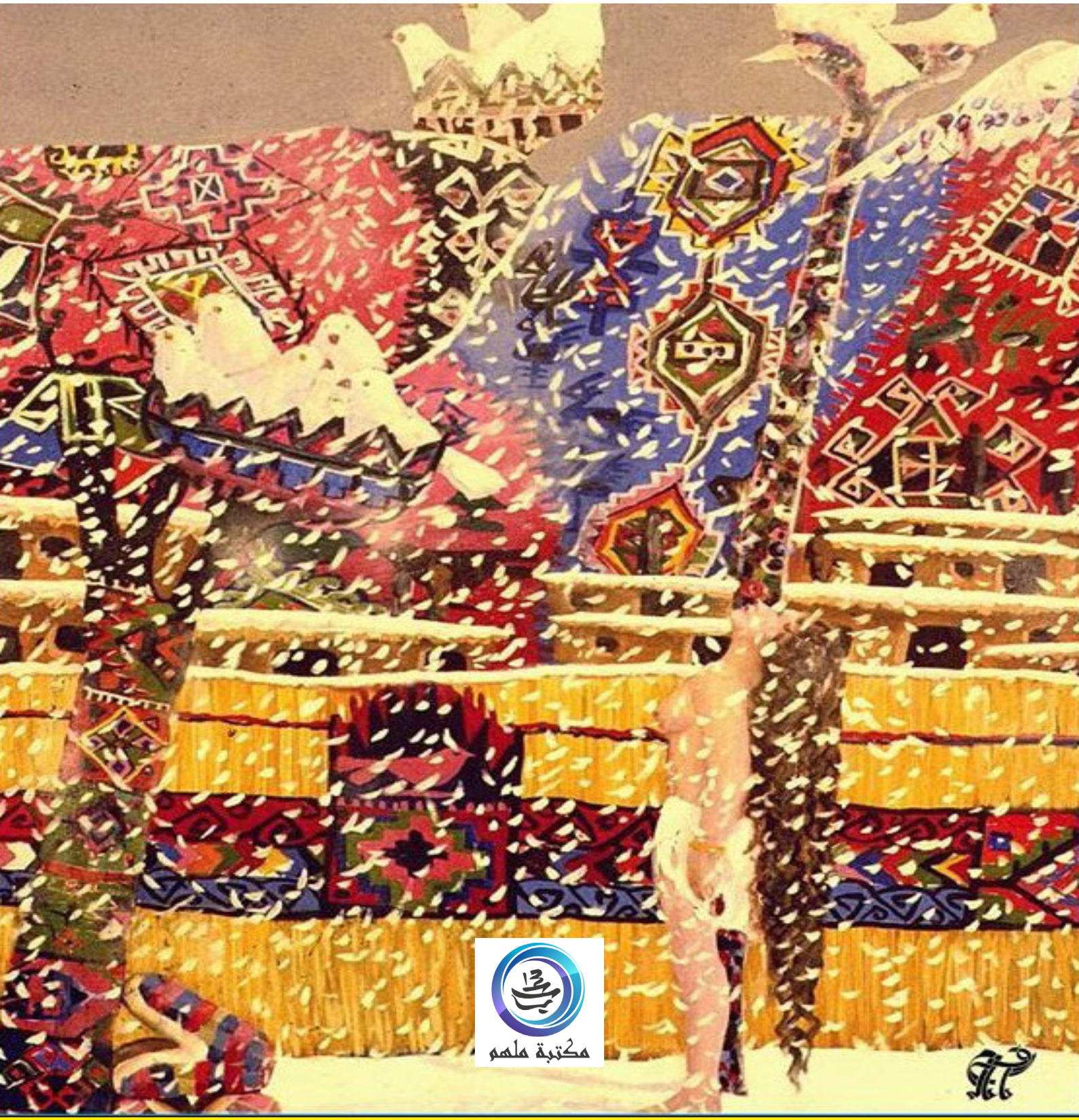

مكتبة ملهم